الجزائر شَاطِئُ إسْتَوقَف النَظَر.

الروائية إزدهار بوشاقور

إنجاز الجاحظية

رقم الإيداع القانوني 2012_5245

ردمك 978_9947_0_2463_6

المؤلفة : إزدهار بوشاقور

لم نَصف أيام هذه السنين إلاَّ بما يثقب الأذان ، ويَمْحُو علَامات الهدوء من القلوب ، ألفين وعشرة وألفين وإحدى عشر هما سنتان

إعصار أو يومٌ طويل ، عصره أكيد . حاولت مقاطعة الأخبار وعاهدت نفسي مقاطعة الحاصل لأنه حاضرٌ متصلٌ

بماضي . ومستقبلٌ تغفوا أجفانه ، كلٌّ ما فيه إحتواه المجهول.

الحَيَاةُ حُلْمٌ جَمِيلٌ، الخَيْرُ مِنهَا إذا عَرَفَ الحَالِمْ كَيفَ يُفَسِرُ ويُحْسِنُ التَحْلِيلْ، ويَحْمي نفسه من العَذابْ و

إحْتَكَمَ العَقْل وَبَان النُصْح واسع الأفق ، فالعَقل سيّدٌ إذا ما البلاء إسْتَسْيَّد .مَالِكُ العَقل سَمَا وَجَنَى المَحَاصِيل ، أمَّا مَالك العَاطفة فمُجَازِف بالرُوح سَاعٍ للتظليل .فأيهما نختار؟

وَلاَ نَزَال أبْطَالْ مَظَاهِر مُثيرَة فيِ هَذِه الحَيَاة ، كالنسِيج المُتَمَغِطْ مُدَافِعٍ ودَافَعٍ مِن أجْلِهَا هِي الحَيَاةِ

لَن يكُون مغربنا العربي غريب عَنَا أو مَغْربٌ بعيدٌ عنا وعن ما عهدناه به لأنَّ منه نتعلم ونعي الفترة

التَي تحولت فيها الأرض في اليابان على ما جره الزلزال من دمار في أوائل 2011

.

والفترة التي تحولت فيها عيون العرب عن المسار ، إذ تغيَّر لديها خط الإئتمان وعرج نحوى الهلاك

وأمسى التغيير هومفتاح الأمان .لأنَّ الزمن أوقف عجلة الدوران . وبات فيه الصامد قليلٌ هذا الزمان.

هناك بما يسمى بالتسمية العربية بالتعمق المفاهيمي لفكرٍ إعتدنا عليه، ومن بين الأفكار التي عالجناها به من بينها نحن نعيش فيما بعد الإسلام وما تركه لنا ديننا الحنيف وفي وسطٍ له أكثر من منحى لأنَّ هذه القضية من بين ما يتداول في الغالب إذن..... ، أوجب علينا مناقشة أفكارنا لأننا أصحاب تعاسة نعيش ملَكِيَّة التغييرالإجتماعي ونتحدث عن إمكانية المساهمة قي إحياء الحياة وفصولها.

_من أين مَرْجَعيَتنَا؟,...

_مِن تَتَابُع تاريخي لكل مجموعة أمْ مِن حَركات مُتعددة الصفات؟

هناك فِكْرٌ وهناك تأمل ..هناك بِما يُعرف بالتَطور ، إننا أجْيال تلحَنَتِ العصور وتسَاهت في رسم مراحل

الحياة ..أجيالٌ أحدثت التغيير وأعطت تنقلات نهتم بها لنُخصص لمراحل حياتنا طريقٌ أو مسلك نعرف

به سبيلنا إلى أين بزوايا الضبط هذه ؟

ومع أنَّ كلَّ غيورٌ على تاريخه وعلى وطنه وعلى مجتمعه يريد الرحيل إلى مكانٍ هادئ ويعيش حياةً

هادئةٍ تحبه ويحبها ، بروحانية وإنسانية العربي المتين القوي والذي بان لون الضياء به وتسابقت

إليه طبيعة الإنسان تحمل كلَّ جديدٍ ، فلا زلنا نأمل تحقيق ما نريده.

لا يمكن للإنسان أن يسافر هذه الأيام والنار طالت سوريا واليمن وحتى ليبيا ومصر، ولبنان لم تسلم بعد

من الطغيان، لا البحرين ولا قطر ...لا ..لا يمكن أن تكون الحالة والتي يسافر إليها الإنسان فالهمجية

أنت اليوم تتعامل مع القضايا بمشاعر وحماسية زائدة تحاول تحليل الحاصل ..وأنت بوطنك الجزائر

هي التي تحدد ملامح الوطن العربي اليوم وترسمه بحواسه .

تسمع عبارات تجعل تفكيرك أحيانًا كثيرة يسأل لماذا هذا الواقع ؟

هل فقدنا الثقة في أنفسنا ومنحناها لغيرنا ؟. هل نتمكن من إخفاء مشاعرنا مطولاً؟

لا يمكن لنا ولو إعتقادًا أننا أقل من غيرنا ؟أو هم أفضل منا .

بل هي أفكارٌ فرضت علينا المشاعر .مرجعها حرية الإنسان والمفطور عليها ، وأنَّ المتفائل أفضل من المتشائم.

....

جلست وإلى جانبها طفلٌ صغيرٌ وعلى كلِّ الحالات كانت تعاتب النفس فالأحاسيس تحفر خدودها وجمادٌ

يكسوهما ، بهما وقارٌ وبساطة مستمران ، كانت مسؤولة ومعبأة بالأعمال وأمست خالية تجر أذيال الخيبة.

وجلس إلى جانبها ومَال إليها بعيونه الصغيرة القَمْحية اللون، مُتَخلقٌ رغم سِنه بهدوءٍ بعيدٌ عن دَوَّامَةِ

الكبار وبكلامٍ ذو كلماتٍ صعبة الوصول قالت:

هل الحياة إكتئابٌ دائمٌ أم هي أسلوبٌ صعب الفهم والوصول ؟

لكنه لم يَنظر إليها ، بل فرضت عليه النغمات الإلتفاتة.

وواصلت .. لا تقل لي بدون نِزَاعات لا تُثار القَضَايا الإنسانية ولا تُحَلْ؟

القَسَاوة هي التي تَجْعل الإنسان إنسان.....لكن ... الحاصل يُكَرهنا في الحياة ، إذ أننا نفقد مذاقها كلَّ ساعة. وقالت : وهل نعيش عدَّة مراتٍ..

لكنه بقي صامتًا..

..ذو سبعة سنين وإن كان جريء المسائلة إلاَّ أنَّه فَضَلَّ هذه المرة السماع منها.

نظرت إليه بعيونٍ واسعةٍ وثابتةٍ كمن تسمع القلب ونبضاته ، وتصاحب والحلم يملك العمر وباقيه

كثيرٌعلى القلب خنق صداه ، أو إنكار شواطئه الزرقاء ، أو نسماته الشفافة الباردة.

قلبي لا يسمع ، ولا يسع كلَّ الأَحَاسيس وإن كان واسع المسافات .....وإن كان نبضه قصيدٌ جميل

يرتفع وينخفض مع رياَحٍ يبعثها كلَّ شعورٍوإن كان عابِرًا...

تمسحت وجهها من الجبين إلى الذقن ، ومع كلَّ تسحُبِ أصابع ترتفع الجفمن في خفة حركةٍ متقنة

ومنتظمة وتتفتح عيُنٌ بندقية جميلة لِذات العيون الشهلاء ، وحواجبٌ مصممة الثبوت ، وخدودٍ

ورديَّة ترسمت القسمات ، ذات الوجه الدائري أشبَهٌ إلى قرص الشمس ساعة تَنَصُبِها وتوسطها السماء

وتمهد الجبين لأنفٍ شامِخٍ علا عُلُوًا قائمًا ، وجْهٌ جميلٌ قابِلٌ للتطوُّر ، وتملكت زوايا إلتزمت مواقع

الدفاع .

إبتسمت فظهرت صفحةٌ جديدَةٌ على لوحة الخدودِ ، وتجاذبت ضحكةٌ خفيفةٌ إختارت الرقة والصواب

لِتخلق مُثيرات لإستجابة والتصويت .

وتحركت يدها اليمنى بِأصابع رقيقة يُزَيِنُهَا خَاتَمٌ بَرَاقٌ في السبابة .

زاغت عُيُونُ الطِفْلِ إلى بريقها على ضوء أشعة الشمس ترامَتْ إليها وقالَ:

أجْمَلُ ما فيه بريقُه ، فكأَنَّهُ الرَاحة ، هو حكَاية أعجزت الكلمات وَ بياضُها تحرُصُه العيون ، وتلفه

كما الحِلم .

توقفت مُطَوَلاً عن الكلام ثُمَّ تحركت فأحدثت تَغَيُّرًا في الكلام وبعدما إبتعدت قليلا عن الطفل منْ لَمْ يكن

سريعًا ولا صاحب همة في الكلام ، وكانت أحاديثه قليلة وإن تباطأت كثيرًا لحظة راَها صامتة وغائصة

قال:

ماذا هل تُتَابعين التلفاز ؟

ردتْ: لا ..لماذا؟

الطِفْلُ: لأنَّ كلَّ ما ذهبْتُ لأَحَدٍ إلاَّ وَوَجَدْتُهُ يَتبع الأخبارْ .....الدُنيا تلقي دورتها هذه الأيام ، ألقي نظرَتُ

وستجدين ما أنوي قوله ، القلب لا يساعفُ المَدْ .

أعطتْ نَفسًا عميقًا وتبعته بِنظرات بعيدةٍ ..

ونادت ..إيه ..أين أنتَ ؟

نظرت إليه من بعيدٍ هذه المرة ، وساعفتها خيوطُ الأشعة المسترسلة على مَهْلٍ تَبْتَزُّ نظرها .

أحنتْ إلَيْهِ من الأعلى فتوسطَ بِجسمِهِ الأرض والسماء ، وتسجن في ملبَسٍ أبيضٍ وأسود في ثِقَلٍ

وصرخ الجسد الضعيف الذائب من طول بَقَاءٍ:

هذا كلامٌ كثيرٌ يتكرر ، يَتمرر على الأذان ونسمعه يدخُلُ بِدون إستئذان وللعيون ما تملك...

قالت: بالفعل إننا أصحاب منطق ورأي يُصفى ، نرى ونسمع كثيرًا فهل تتجاهل مظهر شَعْرَ الرأسِ قبل

وبعد دهنه بدهنٍ نُصَفِفْ به الشعر؟

إنَّ سحرَ بريقه له مواضيع ميزاجيَّة عازفة لقصةٍ جميلةٍ.

لا يزال الطفلُ ينظرُ إليها رافعًا رأسه مُمَدَدَ الرقبة ، ولا تزال هي تحت تأثير الفكر المُشَرد يتكلم .

قالت: أريدك أن تكلمني لكنني أعرف أنَّ الكلام الذي أتكلم فيه لا تتكلم أنت فيه.

وأقُلْ لكْ: تكلم في أي شيء تعرفه .

وتنهضت من مكانها وتنفضَت خلفها تُزيلُ ما تركته الصخرة الترابية، تنحت النِعالْ من يُمناها وتمشي

حافية .

تراجعت تستدرك ما وقعَ من قدماها وقالت:

إنَّ الأوضاع اليوم في البلاد العربية هي واضحة ، هناك صحوةٌ صحيحة تَسير الدرب الصحيح

الثورة التونسية إبتدأت من ديسمبر 2011..لكن صغير السن خرج عن سنه وقال:

لكني لا أزال أسمع وأرى لا زالت هناك شوارع مليئة بالناس .....

ألا تشاهدين الصور على الشاشة فلا أكاد أتابع الرسوم الورقية إلاّ وعرجَ أحد كبار السن عني في البيت على تغيير القناة ومعه الصور لأخبار أخرى ..قتلٍ وأمورٍ لا أعرف عنها غير الصور .

إستمعت إلى حديثه وهي لا تزال اقفة

قالت: أولا تزال تسمع نحنُ نعيش ذلك ..أولا تعيش كلَّ يومِ عطلة سبتٍ مظاهرة ..

ناسٌ يخرجون إلى الشوارع ، يهتفون بالتغيير ، ولا فتاتٍ واضحة تحمل كلامٌ مرٍ يهدف للإصلاح.

وقالت: ثمَّ أتريد الحقيقة؟؟ لقد كنت واحدةٍ منهم ثم إذا كانت في السماء نجومٌ مبعثرة ..كيف لنا بني البشر

حفظ النظام والبقاء على نظام الصف.

وهل ترى أن الفطرة تتغير وبسهولة ، إننا أبناءها وأخذنا من الحياة ما يعدُّ أيامنا للجديد.

قال: لكننا نخاف الموت ..أولا تخافيها أنتِ .

إنَّ كلَّ يومٍ هو نقصانٌ من الأعمار ، وإنني أكره الحرب وأكره حتى رؤية محاربٍ أو بندقية

ردت: هناكَ أماكنٌ اَمنةٌ هناك إستقرارٍ وإن كانت هذه الحالة هي إستنفارٌ، حُجته التغيير ..

إلاَّ أننا أصحاب ضمائر حيَّة .

وأضافت : لكن الفوضى التي تعرفها الشوارع هي فوضى مفروضة ، هناك عيشة وبحثٍ عن اَمان

هناك نقصٍ يحتاج إلى ملء .

يردُ الولد وقد ملتْ الكلمات الإنقطاع مابين شفته فبانت في إنتفاضةٍ وطفحٍ :

وهذا ما دعا كلَّ هذه الحشود إلى الخروج إلى الشوارع كلَّ يوم سبتٍ، كنت أظنه يومَ عطلةٍ؟

قالت في سرعةٍ: لم يكن كذلك ولكن تمَّ تطبيقه في عامنا هذا العاشر بعد الألفين وهناك الجديد والكثير من

الجدَّة ومعها حركاتٍ تنشدُ التحسين....

يَنظر إليها الوَلد كَمن يُريد رَفع الحَبْسِ عن ضحكةٍ ، تَغيُّر مَلامحه يفرض سؤالٍ إستفساري

ملامحٍ تسأل أين أنتِ ومن هذاَ؟ هل خرجتِ في مظاهراتٍ ؟.

لفته بذراعها الأيمن فدنى رأسه من خصرها ، ورفع نحوها رأسه ، إذ ظهرت هناك هي عالية تبتعد

عنه بأميالٍ لكنه قريبٌ إليها وقريبة هي إليه .

قالت: نعم كنتُ هناك واحدة من بين الأجساد المتراصة ، واحدة في تلك الحشود ؟

الولد: هل تأخذينني معكِ في الأيام القادمة ؟ .

وبسرعةٍ: هل تتمنى الخروج في حشدٍ هكذا ؟ هلاَّ تفاءلت خيرًا ...إنها مظاهراتٍ تعني فيها سِلْبُ وعُجاَجٍ

اَتٍ ، وإننا نقول دائمًا إنَّ خُرُوجَ الناس هو أمَلٌ وإنعِكاس ، كَما لو كان منحٌ للصمات الصوت .

هناك من نسمع إليهم كمن قطعة منا نريد إصلاح عَطَبَهَا ونُعِيد لها قُدْرتَها على الفعل .

لكن دموع هذه الأيام كَثيرةٍ ولا نَسْتطِيع وَقْفَها، وطَفَحَت في طَفحٍ يَتَمَنَعُ عَنِ المَنْعِ ، ويَطفح ذَلك عَلى

السَحْنَة .

إنها الأيام تَسْحَبُنَا مَعَهَا ونَحن نَنْظُر إليها كَأنها تَعِدنا وتُوعِدُنا وقلوبنا معها تترنح فنسمع صوتها وهي

تَدْعُونَا إلى التَفَاؤُل الحسن .

الولد: حدثيني عن مدينتك أين ولدتي ، ما أعرفه أنَّكِ ولدت هنا؟

المرأة الشابه: وأين ولدتَ أنت كذلك وأقاربنا والكثير مما نعرفهم ؟

وأضافت هي كما كانت من قَبْلٍ..

لا تزال المرأة تتحدث إلى الطفلِ وهي تتسحبُه من يَدِهِ ، وتلبس نعلها بعدما تنخسَ من رِجْلِها ..

والأن ونحن في هذه الحديقة سنعود إلى البيت ، كما ترى هي حديقة منذُ العهدِ الماضي عهدٌ كانت فيه

البلاد تحت البلاء ، ذاك الحين لم يكن هذا اللباس منتشرًا ، أقصد الحجاب الأسود والخمار الأبيض، لأنَّ

الهمَّ كان نيلَ الحُرِيَّة .

ولم يكن هناك مباني مثلَ ماترى أمامك...مباني جاهزةٍ ..

مع تقادُمِ السنين ، وبالكثير من التأكيد في السنوات الأخيرة بدأ التغيير .

عام الألفين هو فتحُ خيرٍ ، تراجع الكثير مما كان موجودٌ فما مضى ، عُبِدت الطُرُقْ وبنيَ هذا المسجد.

ولا يزال يستمع إليها وتُسْمِعُهُ .

الولد: وأين نحن ذاهبان؟

المرأة : إلى البيت إلى بلدية وادي سلي أين أسكن؟

ونظرت إليه..

هل عشنا في مكانٍ اَخَرٍ من قبلٍ ؟ هو بيتُ أبي وأمي ..وأبواك ..

يبتسم الطفل أتسْمَحِ بسؤال؟

المرأة الشابة: وهل إعترضت لك من قبلٍ على إستفسارٍ؟

وقالت: قلْ ما تشاء؟

الولد: لماذا لا يوجد عندك أولاد؟

المرأة الشابة: لأنني لم أتزوج؟

الولد: ولماذا لم تتزوجي إلى يومنا هذا؟

عَاودَت النظر إليه في هدوءٍ وهذه المَرَة بِدون تبسم نظرته حتى بان أبيض العين يبتعد عن الأسود.

قالت: هي مشيئة الله لم يفتح علَيَا ، لم يتقدَّم أحدهم لِخطبتي ..

الولد: وماذا بعدْ.. وقد تَوَضحَّ عدم إنتمائه إلى كلِّ ما تقوله وأضافَ:

هذا يكفي ، ولو أنِّي لم أكن أريد سماع الإجابة ؟

المرأة الشابة: لماذا؟

الولد: لأني أحبك وتبسمَ.

ودونما أن توليه النظر ، هذه هي مدينتي ، تَحَضرَ بها كلَّ ما نريده ، ما نبحثُ عنه .

....

وهاهما يسيرانِ طريقٌ طويلٌ تُرابي ، يَتواصل سيرهما إلى أنْ يقفا على عتبة بابٍ عتيقٍ مغلقٍ وبان كلٌّ

ما خلفه، وأمامه أناسٌ هذا عابِرٌ إلى الداخل والأخر مارٌ للداخل، حركة تَنِمُّ بعَمَارَة المكان، هذه دار

البلدية بنيت هذه السنوات الأخيرة .

ولا يزالانِ سائرانِ في طريقٍ ترابي مرشوشٍ بماءِ ..حتى يصلا إلى مبنى عالٍ أصفَرٍ وأبيضٍ ويقفا عند

أوَّلِ حطةٍ تتوقف على عتبتها الحافلة القادمة .

الولد : لماذا وقفنا هنا ؟

المرأة الشابة : لِنَرْكبا مَعًا؟

تشدُّ على يديه : هذه حافلات خاصة بنقل الطلبة إلى الجامعة بالناحية و هذا المبنى (تُشير بسبابة يدها

اليُمنى ..هذه جامعة الحقوق إذن ..لن يسمح لنا بالركوب هنا ؟ بل سنواصل السير على أرجلنا حتى

نصل.

ينظُرُ مبنى جميلٍ و ورودٍ من كلِّ الألوان أحمرٍ وبرتقالي وأصفرٍ وأبيضٍ وهذه المرَّة أين نقف ..

عند المكتبة الولا ئية .. هنا أنا اَتٍ كثيرًا .

الولد: أصحيحٍ؟

المرأة الشابة : نعم كنت أحضُرُ كلَّ مساءٍ ثلاثاءٍ بل كلَّ يومٍ إذا ما إحتجتُ .

وبعدها سنصل إلى الملحق البلدي وهو مبنى جديدٍ .

يُمَسِحُ بأصابع يمناه ويتسحب شفرة عينه اليُمنى إلى أعلى ، ويفعل مع اليُسرى .

المرأة الشابة: هل تسرب إليهما الغبار ؟

الولد:لا أدري ، ربما ..

قولي لي : ألا يزال الطريق طويلاً ؟

المرأة الشابة: لا أنظر أمامك لقد وصلنا .

الولد: هل يوجد بحرٌ؟

المرأة الشابة: نعم هناك في مدينة تنسبها بحرٍ يمتد من الساحلين تيبازة ومستغانم، لايبتعد كثيرًا مسافة

ساعة زمنية من مكاننا هذا .

يبتسم الولد : من هنا وهل هنا يوجد مركباتٍ؟

المرأة الشابة : هذا هو مكان ركوبنا ، مكانٌ ترابي به الحصى من كل الأحجام وأتربة على أصنافٍ

وتواصل: أنظر هذا السوق مفتوحٌ كلَّ يومٍ عدا يوم الجمعة ومع المساء .

الولد: هلاَّ دخلتيه؟

المرأة الشابة : كثيرًا لقد إبتعت منه كثيرًا أكثر من مرة أحصيها ، يسيران خطواتٍ ليجدا وسائل النقل

أكثر مما تحصى وركوبٍ ونزولٍ .

يشير عليهما شابٌ في عمر العشرين أن إصعدا؟

يجلس إلى نافذة زجاجية ، وتجلس إلى جانبه ، ينظرُ إلى الخارج بعدما تحركت العجلات في صمتٍ

كان صامتاً لكن عيونه تتحدث تتكلم في سرعة .

فاضت عيونها بأَحاديث كثيرةٍ لكنها تُفضِل الصمت لأنَّ هذا يلائم حالة المسافرِ.

....

ها هو الحي لا ح من بعيد ، هادئ هو هكذا منذ زَمنٍ إذ كان يعُجُّ بالناس ، هناك سكنات قاومت وهي

تحيا منذ سنين التدمير ، ولا تزال كما الشخص المنظور في أمره .

نزلا وسارا طريقًا غير بعيدٍ عن البيت ، إذ إبتعد بأمتارٍ فقط عن نقطة توقفهما.

سارا حتى توقفا على عتبة الباب ودنت بيدها إلى جيبها بسرعةٍ تريد المفتاح.

الولد: هل لديكم طقوسٌ مثل التي نشاهدها على الشاشة..يجتمع فيها الشيطان للإنسان؟

المرأة الشابة: وهل زرت واليًا من قبلٍ أو مكانٍ مقدسٍ؟

الولد: لا أبدًا؟

المرأة الشابة: أمَّا أنا فمررت به منذ أيامٍ فقطٍ كان الإحتفال بوعدة يقال عنها وعدة سيدي أبركان .

صوره في البال ، ذكراه لا أستطيع محيَها .

الولد: هل هي أماكن مقدسة ؟

المرأة الشابة: لا ..لكن أصحابها ذوي مكروماتٍ .

دخلا والحديث لا يزال مُكْتَظٍ بين الشفاه وكأنَّ الكلام لا يزال مُحتضَنٌ.

الولد: ماذا لو أخذتني ذات يومٍ معكِ؟

المرأة الشابة: هل تريد أخذ مكانك تحت الشمس ؟

الولد: لا ..ولكن من كثرة سماع بابا يَتحدث عنه ؟ غرقتُ في الفضول ..

المرأة الشابة: وهما نقطة إلتقاء لا محالة فهل تنكر العلاقة بين التشهي و اللعاب وواصلت..لا أنكر أبدًا

هذه العلاقة ، مثلها مثلُ ما يحدث اليوم ، أيامٌ تتقارب وسنين تمُرُّ و روتين لا يكاد يترك الصدى.

وعلى كلٍ فوالدك يعود هذه الأيام.

الطفل: لقد قلت لي من قبلٍ

المرأة الشابة: أتدري ما أقوله هو كلام فقط ، لأنَّ الحكم فيه متروكٌ للأيام وما الأقوال إلاَّ مدلولات الألسن ونحن نسبح من ورائها.

وتواصل : لا أريد التفسيرات بالتفاسير ، البَيِّنْ في قوَّة الغي هو أثره ، والضعفُ في الفقير هو جيبه.

هي كلمات مقدسة وقداستها في تفاسيرها ، حتى مشيتنا قد تكون بألف معنى .

أو لست معي عندما أقول : الهدوء يُخلف أثرًا غير عميقٍ للقدم ، بينما الركض يترك العمق ، مثلها مثل

العلم المخلف للنور في الفكر .

أصحاب الظروف الحزينة خلفت فيهم الأيام خيوطٌ داكنة ، هي كلمات لأقلام مجدافة تنسي عزيز الروح

ما غلى منها .

الطفل: إنَّك حقًا تحلمين ، وهل تتكلمين من الخيال .

المرأة: هذا ما نعيشه فهل تنكرين الكلمات التي ذوبت الصليب ، والدموع التي خلفت جفون وخدودٌ

مختلفة .

يحتكم المكان للصمت ، ويتدخل بريق شعاعٍ الشمس بغير فضاء يرسم المكان ، ويغيّؤر الحواس بالإنتباه

....

نادته إلى غرفة واسعة ، إفترشت بأنواع الزرابي وتنوعت فيها الأرائك القطنية والجلديَّة في شكلٍ دائري

يتنوع به لون العين ، والجدران أبيضٌ بَراقٌ عكس زجاج الثريا في الأعلى .

جلس إلى جانبها ودارت إليه :

أنت اليوم صغيرٌ لما تكبر وتعيش كثيًرا تعلم، حينها تعلم ماذا أقصد أنا .

وقالت: أتعلم شيئا عن الأولياء الصالحين؟

قال: لا.. ولا حتى الكلمة لا أعلم عنها شيء؟

المرأة الشابة: قبل أن تصل بأيامٍ زرت أحدهم (الولي الصالح سيدي معمر)هو إين الناحية ..

هو ولي موجودٌ بمدينة تنس ، من أجمل الأماكن طبيعةً ، من صنع بديع الخالق ، وماذا أقول عنها ، هي

قطعة أرضٍ أبدع الخالق في تصويرها ، هي دليل الجمال والتحدي ، لا تكفي العيون لوصفها ، هي

إحساسٌ ونغم ، سعة ووسع حالٍ يعيه الواصل إلى هناك .

هناك أثارٌ تتمنح الوجود وما كان من الماضي هنا ، واقعٌ يفرز كفاءة من قبلنا ، ويتجاوز ما نكنُّ من

تعقيدٍ .

سألها الصبي : عن قانون الأرض ، وهل هناك من يحدُّ إستغلالنا للأرض .

المرأة الشابة: بل الطبيعة من حالها من توقع هذا الجمال ، وتسير بنا وفق ما تمنحه لنا من جمال .

وتواصل: إنها تجاربٌ وإجتهادات.

يلا حظ تحرك شفاهها ، ويتعمق في فتحها وغلقها ، وقد أدرك ما دخل من من الجهل ، يتحدث وقد

تكيَّف بما حوله .

قالت: لقد زرت البحر هذه الصائفة أيامٌ قليلة قبل ظهورك

الولد: ورفقة من؟

المرأة الشابة: طبعًا لا أستطيع الذهاب وحيدًا لأن الرفقة وَنَسٌ ، هناك شواطئ وغا باتٍ مكيفة لإستقبال

الناس ، بها مطاعم ومرافقٌ هي تحت الأمر ، رونقٌ وجال تجعل الزمن أحسن ، وتنتج بداخلك المغامرة

وتعبر عن صوتك المغمور ، فتنير ما إنطفأ فيك من نورٍ .

حينما تسير والبحر ، ويداعبك النسيم من غير جُهدٍ ، تحسُّ بنفسك ترتقي إلى مختلف الأزمنة

وتكتشف أنَّك تستعجل الزمن وتحثه على مواصلة التجديف علَّة يضبط بينك وبينه الزمن الواحد

وكيف أنسى ولا أحدثك عن المنارة ، ذاك المكان الجميل البعيد في البحر وعندما تنظر إلى بعيدٍ هناك

بناية بيضاء ، وتكبر كلما إقتربت إليها ، منارة أخذت لها من نور الشمس القوَّة والحيلة فهاجرت بعيدًا

.....نظر إليها الطفل وقرأ على لحن كلا مها ما عملته الأمواج وما أيقضته في الصدر .

المدينة لا تخاف الظلام ، طال نهارها وتسلح بعصرٍ نفخ ما فيه من روح ليسبح في غروبٍ وهو على

هِدَاية الزوال.

إنها مدينة ترافقت والأحلام .

الولد: هل تعيشين وسط الناس وتنالين ما تريدينه؟

المرأة الشابة: نعم كلَّ ما أريده ، صحيحٌ أننا في مدينة ليست متفتحة مثل المدن الكبرى ، فلا يوجد أماكن

كبرى للتسوُّق ، لكننا نتصرف بما نحمل وبما لنا .

سآخذك غدًا لترى بقية التقصي ، وستعيش معنا أيامٌ بهوائها ومعدنها الحقيقي ، وإن كان هذا الهدوء

يعكره طلب الإنسان .

كلما إهتزَّ السوق إهتززنا معه ، والخطأ يُسَيِّرُه الصواب ، هكذا هي الحياة غوغاء وتروي ، وما أمهلته

إلاَّ لتشحن لاَتي ، فكن كمن يعد لها العُدَّة.

الولد: لماذا كلَّ هذا؟

المرأة الشابة: خِفْتُ على نفسي من الأيام ؟

لا تعجل ولا تعجب ونظرت إليه في عجلٍ ، إنها الحياة والحاجة تضرم في الضعيف النار .

إنَّ الإنسان هنا اِبن الأزمات ؟

الولد: لكننا قادرين على الإنتاج ؟

المرأة الشابة: يُمكن.. لكن مع من تتحدث ..هناك إلتزامات ، والمال اَلة اليد ، الشاب المنتج مُتطلب

وهناك المسؤول .

إذا أخذتك الأنفة على بلدك يصدك الحاجز مطالبًا بحقه ، كيف يُساعدك ولا يأخذ ضلعًا منك

إنَّ القدرة الشرائية تتحدث بمدخول الفرد ، إشتري قدر نقودي ، هي أمواجٍ بقدر ما نهابها نغوص بها .

....

.....

سَقطت أوراق من زَمن اليَوم وبان نورٌ يتخفى مرسوم بأوهامٍ من القلب ، الشمس تفرض أشعتها على

الأرض وتتمسح بشدَّة وجدِّية طَمْسَ الظلام تحثنا على النهوض ورمى الغطاء عنا.

لن يطول بنا الزمن حتى نرمي ورقته بعيدًا ، ويُصْبِح الحَلْ في مُجَارَاته ، ونَحْسِم فُرَاق سَاعةٍ إلى فَصْل

مَا نَكون به على مَا كان.

خَرجَا يَتَمشَيا واليوم في أوَّلِه ، شَمْسُه هناك تَتَبسم بعيدًا ، تَتَرسم في الروح هُو ذا حبَّ الحياة والإنبعاث

من جديد في عقد مُنَظَمٍ مُنْتَظمٍ .

يسِيران في شوارع البَلدة الصَغيرة في طريقٍ توسط العرض تمرُّ بهبعض السيارات وأناسٌ قلَّة إنه فرق

كبيرٌ أين أنتم من المدينة الكبيرة ، عمران ونظافة وبعدٌ نفسي وحيوي للإنسان ، لا أنتم بعيدون جدًا

هُدوء وأرضٌ ترابية جافة وقلَّ' وعدم وسكتت.. لكن، ، قَالتها وتوقفت وتغَلبتْه بصمتها ثمَّ تكلمت

المرأة الشابة: هي بلدية يعني بلدة صغيرة مثل الريف في أوروبا ، ما تريده تجده مثلما حدثتك بالأمس

عنه وصمتَ .....يريد لقاء النظر ، ويُحِبُ التجوُّل في ممشاه وببصره .

الولد: وأين نحن ذاهبان؟

المرأة الشابة: إلى اَخر الشارع .

وسَارَا إلى بَعْضٍ هُنا إرتفع صَوت مُكبر الصَوت مِن سِيَارةٍ يُنادي معلناً عن وفات أحدهم ساكنٌ

بالحي ، وقالت هذا الظُهرُ سينتقل إلى التراب سيدفن..

نحنُ لله وإليه نرجع .

الولد: ولأننا نموت علينا العيش وبأفضل معنى ؟

المرأة الشابة: لا يمكن للإنسان منع نَفْسِهِ من المفروض ، والقدر فُرِضَ علينا إن هي إلاَّ الفواصل

في الحياة ، هي مواعيد للقاء والتذكر ..قد تكون إسترجاع لما كان أو التحدث للروح كلُّ هذا تشريفٌ

للنفس .

وفَتح حَديثها كما اقتحمت قداماه السوق يبحثان عن سلعة جديدة يقتاتونها لكن ما أريد سماع جواب له

هو ما الفرق هنا وهناك ؟

الولد مواصلاً : قُلْتِ لي ساعة رؤيتك للفواكه والتي جلبتها من هناك معي يستحيل زرع مِثلها هنا

ردت: المُناخ؟

الولد :لكنها بلادٌ واسعة وإن لم يكن بالإمكان في الغرب كان في الشرق .

تبسم البائع وكان شابٌ لم يتعدى العشرين ، وزن الطلبات .

البائع وقد إنضمَّ إليهما بعدما إستأنس لهما :

الإنسان مثلي في حاجة إلى إعانة وقدرة ، وزَرع ما تُحب قد يكون تجربة إذا نجحت فيها خيرٌ والعكس إذا خسرت فعوضك على الله .

ردت المرأة ببسمةٍ.

كانت شابة لا فتة ، نظر إليها الشاب وكأنه يَتَحدث إلى عيونها..

لمن كلَّ هذا الجمال ، وتبعها بعيونه وهي تبتعد ونظراته تقول:

لماذا هذا الجمال يسير في الشارع ، وحجبتها موجة الأجساد المُقتحمة للمبيع والشراء ، وغيبته عنها.

تمسح الشاب على عيونه بعدما تشبث بالعدم .

سارا طريق ضيّقٌ سألها عن العنوان قالت، هس زنقة النساء ، لها مرجعٌ حقيقي هنا يجتمع النساء للشراء

والبيع.

إستوقفتها إحدى الشابات في العقد الرابع تسألها وتستفسر عن أحوالها .

وَاصَلاً بعدها الدرب ، ولم تكن الشمس بلغت بحرارتها منتصف النهار وتعمقا في الشارع حتى

غاصت قدما هما في التراب .

قال يسأل: هل ننام و أزمة قيَّمٍ على فِراشٍ واحدٍ ، نقوم ونجلس على نغمها ؟ أو ليس هناك تغيير؟

المرأة الشابة : ماذا تقصد؟ بهذا هل نحن لا نعتبر؟

ردَّ بسرعةٍ : لكنها الحياة وعلينا كلَّ يومٍ الولوج إلى هذا السوق ، وواصلت : المجد مُغيّرٌ أكيد ، فلا يكفي

الإجتهاد والسعي خلف كُتَلِ البِناء .

ردت: لكننا نتواصل وقناعتنا فيما نكسبه من مجدٍ نأمله مُغَيّرٌ للمصائب هذا أكيدٌ ، بالإضافة إلى ما

يُضْفيه من إرتباطٍ تاريخي بيننا .

قالت : هل تفسر السلم بالإستسلام ؟ وواصلت لا..لا يمكنك ذلك كُلنا مع التفكير المستقل ، تذبل أفكارٌ

فينا وتنهض معها في البال فرصة ، فلا تلحُ على النفس لَبس ما تلبس .

ولا تتحجج بعمق التاريخ والتكنولوجيا ، لأنه قام به اللسان .

الوطن قطعة من الجسد وهي نبضٌ له ، فهل يمكن فصل النبض عن القلب والذي ذاب به نخب الروح

وإنصهر كما ينصهر الرصاص من شدَّة الحرارة.

وتلفتت إليه : لا تنزعج .. هي الذاكرة تعود بنا ونسترجع معها ما كان ، لكننا نُحَمِلُ أنفسنا القدرة

والإقتدار ، والنشيد الوطني هو ملحمة ثوريَّة وفِعْلٌ إنساني ، كما أنَّ التاريخ عظمة لا يمكن وقف رنينها.

توقفت على بابٍ لا يُؤَمُ إلاَّ بِدَرَجٍ ، ونظرت واسعًا وإمتدت بها النظرات إلى بعيدٍ ثمَّ قالت:

لا تقولي هي أحلامٍ نابتةٍ في الخلاء، وأمطرتها الأماني بنظرات الحصرة والبلاء ..

قال: كيف تقولي هذا ؟

المرأة : أنا أعني ما أقول هناك أقدامٍ تركت الأثر ، وطرحت شرايين أخرجت النسل ، والجيل لا يستطيع

بتر الحاصل أو سحب ما لا نريده من أذنابه إلى الخارج .

نُفكر ونُغيّرْ ، ولا نتحمل المصائب بل نضعها على بعضٍ في إنتظار الحلْ لكن لم تقل لي ماذا تريد؟

هل الكلمات تذهب الأحلام ، وتموت الأصوات بالداخل مع مرور الأعوام إذ أنَّها تتحلل وتموت ، على

البشر تخيّر من الأمر أفضله لإثبات الوجود وتنحيَّة الحقد والحسد واجبٌ لا تركهما يتسكعا وتتبسط بدون

أهمية ، ويصبح ذكر السنين إلاَّ هوامٌ مثله مثل السحاب الأزرق في الليل الهائم.

لحظة تسابق حبات الضباب تمنح جمال الطبيعة ، وساد الصمت وتسيَّدْ ، واِستمدَّ الوجود جودته من جهل حنونٍ يُعَدُ بالفكر والتفكير .

وزارهما الشذى وزارهما الحنين ، وتَجَلَّب شفق القلب كلَّ الحيرة ومن كثرة الأشواق لم يعد للشوك ما

يفعل ، إذ ساق أمامه المودة والثناء وتعمقت هزات الأسئلة ما فرض فتح نوافذٌ للشمس ، تتعمق جوف

الحَلق وكلَّ مغمورٍ .

هذه هي الدنيا ، نحياها في تنَّوع و إختلاف ظاهر ، والإنسان هو الذي يغيّر حياته ، وهو الذي يملؤها

أو يتركها على حلِّ زمانها ، يحكي الوجود صفاء حياة الإنسان .. فالوجود هو رمز البقاء والإستمرار

والإنسان هو الذي يرسم للحياة طريقًا تنتهي أكيد ، الكلام بدون معنى يرسم الشقاء بلا شكٍ .

إننا نكتب على الهوامش الحمراء فقط هذه الأسطر ، ونتبع تموجها في حروفٍ ورموزٍ .

تكثر ضحكاتنا وهمساتنا ، ونبحث عن الإنسان المؤثر .

المرأة: قل لي هل القمر يظهر أيام فقط ؟

ردَّ في سرعة طبعًا لا..

المرأة: إذن يظهر على الدوام .

ردَّ : لكن قدَّره الله سبحانه من له القدرة عليه .

المرأة : هناك أفكار تجْبِرْ نفسها علينا التفكير، هل نحن مسيرين؟

وتتمهل في الحديث إنها أسئلة أُفترضَتْ وتمنعت الظهور خوفًا من الرد عليها .

من يتكفل بإيجاد الجواب ، الإنسان الحامل للعِلْم إنَّ الأفكار اللاجئة هي في الواقع أفكارٍ أملاها الحائر

وأنا متفائلة لأنَّ قمر الأيام دائم الظهور ، لا يمكنه الذوبان ، والإنسان يخطوا خلف الحقيقة ليعرف السِرَّ

في ذلك .

الولد: لقد ذهبت إلى بعيد ، أيُّ إنسانٍ هذا من تمنحه الحياة في مثل حياتنا ليدخل عالم كهذا؟

قالت: ماذا أسمع ألا تعلم أنَّ هناك بحوثٌ تقام هنا وهناك ، وفي كلَّ المجالات ..لكن هناك علمٌ متصلب

كما القضيب المُتصلب ، ولكن خطّ القلب خلف الأوهام ، وربما كلما كانت هناك تعبئة تُنَحِى القَيدَ المُكَبِل

عن ثقله ، وتحقق عن العمر ما تغيَّب عن الوصف.

لا تقل لي أكثرتِ الكلام ، نحن نعيش مع جماعة تَرضى بنا ونرضى بها ، حياة نحسُّ بطعمها

الولد: قولي لي هذا ما نعني الجيران وكلَّ العائلة وكلَّ الأقارب.

دخلا حيًّا شعبيًا وعلى منعطف الطريق ، لفتهم بركة ماء برزت بخداعٍ على إمتداد الرصيف ، وإستغرقا

ينظران إلى مياهه العكرة ومنفذها المُغلف ، خرجت إحدى النسوة من بابٍ حديدي ضخمٍ ، ووسعت منفذ

ووسعت منفذه .

تركزت بمنكبها على مكنسة يحملها قضيب من خشبٍ متين ، نظرت إليهما بنظرات التحدي من لا يريد

إستفسارٍ ، وببسمة أطالت وتصعبت الإنفراج وثِقَل التعبئة، أحست بيده الصغيرة تَعصر يدها ، قرأت

خطبه ودونما لفة أو إحاطة بنظرة .

قالت: صباح الخير ؟

ردت السيدة بتحيتها وتابعتها بالسؤال عن أحوالها .

كانت تتلقى الإجابة ، والأقدام تحت السير وببطء، وعندما ضمن أنَّ المرأة لن تسمعه قال لها:

إنها شرسة لا أظنُّ أنَّ فعلها هذا وتركها للماء يجري سفهًا هكذا هو محبَبَ لغيرها .

المرأة الشابة: ردت صدقت كلَّ ما قلت ، لكن لو علقت على الفعل لقيلَ لك أنَّك تتحكم وتمررت بلسانك

على الجيران .

الولد: دائمًا علينا إثبات مَقدِرتنا على ردِّ الأذية .

المرأة: ولو كان الشخص المظلوم من الأعيان هل يكون له نفس نصيب الكلام ، بالطبع لا .

وصمتا بينما واصلا الطريق إلى البيت وراحت النظرات تتصفح أماكن تراصت بيوتها ، تألفت من

عمارات ذات طابقين حملت من الأفراد القلَّة.

ولا يزال على نفس الدرب في خفة سيرِلن يراجعها تراجع.

المرأة الشابة : منذ خرجنا من المطار وأنت تستمع لي ، ألا توجد عندك أسئلة أخرى ؟

الولد: أتنكري فصل الليل عن النهار، أو لم يحصى الليل لينام العباد ، والنهار للنشاط .

المرأة الشابة: لكننا بالوسط وبمدينة الشلف ، هي كما البلاد الأخرى ، فيها أماكنٌ هادئة تؤم الكثير من

السكان ، فيها نور الحريَّة يخفق بالمشاعر، إذ لم يكن من التجرؤ القول نبراس ينطفئ ، إذ لم يكن فنبدل

المكان بالمكان.

ونظرت إليه: أو ليست التوبة تبديل السيئات بالحسنات ، وكما تجيد رسم الحروف وإرسال ترصبات

الأفكار في بساطة، تُلحِنُ الندى على أوراق الورود.

دخلا مترافقين ، وإستقبلتهم العجوز ، حملت عنهم ما حملا إلى الداخل ، وهي تمرُّ دهسة ذيل القطة

من صاحت حتى تسمعت آهة من داخل جوفها ، وفرت من الأعين .

العجوز: أتحب القطط؟

الطفل: مذُّ مُدَةٍ .

العجوز: كيف؟ قالت العجوز بإلحاحٍ إستفساري.

الولد: عندي قطة ماهرة ، تذهب بمفردها ، وتعود لقضاء ما تريده ، وبها الكثير من الذكاء والحيلة

حتى أنني أستعملها في الكثير من المصائد.

وأشارت عليه المرأة الشابة : لا يزال هناك مشاوير ،ألا تريد مرافقتي ؟

الولد: بلى

المرأة الشابة: بالطبع تريد إستثمار وقت فراغك. وتبسمت ..ليس معك الكثير.

....

أخذت المرأة تسرح في الأشياء البعيدة قبل القريبة ، ورضات الصباحيات تتلطف وتتمسح على الخدود

كلما إصطدمت بالمسامات المنغلقة هذا الصباح مثل العمل تذهب لذته ويبقى أجره، ومعه تحلُّ كلَّ معاني

التغيير ، وبعد فجرٍ أعذب سلسبيل تتلذذ حلاوة الحياة أحسن مما حكته ألسن العابرين .

كلُّ هذا في حلاوة النسيم .

المرأة الشابة: من هويَّة النفس الإستعانة بالمخزون لبيان جمال الأشياء ، لأنَّ الإستسلام للبؤس إهانة

مثله مثل إطالة اللامبالات، طبعًا لا أريد نسجًا فريدًا لإنسانٍ أو لسان حال لواَصف أحوال بما غاص و

طفح ، وبَتَّ فينا هذه الأحوال ، نريد البشر الأدميَّة مسالمة وسالمة.

وفجأةً قاطعها بصيحة .

ما هذه الشاحنة ..لمنح الدم أو أنني مخطأ

المرأة الشابة : لا هو ما رأت عينك .

الولد: حياة وموت وما بعدها ما يأتي من لقاء يحتضن الميّت .

الولد: لماذا لا نمنح القليل من الدم لِمُحتاجٍ ، أريد فعل هذا ومن نفسي.

قُضي الكلام وهما يسيران ، وزحفا إلى الشاحنة على حافة الرصيف المجانب للبريد والمواصلات.

همست له : وقد إنخفضت إليه حتى إلتوت ، وهمست بصوت بالقدر الذي لا يسمعه حتى أقرب المقربين.

قالت:إحترس ولا تهرب ، أمامك إمتحانٌ صعبٌ وتنال به أجرٌ عظيمٌ .

الولد: سأمنح من دمي ما أستطيع.

المرأة: هل كنت في فرنسا تمنح من دمكَ؟.

الولد: هناك سِرْتُ في كلِّ جانب وبكلِّ الدروب ، لكنني لم أضيّع مسلكي ولو عكسته بالضد.

صحيحٌ أنني إحترفت الحيلة ، وترافقت الصغار وحتى الكبار .ومنحتُ أكثر من مرَّة الدم .

ردت وهي تصعد الدرج : ثقتك ذات صنيعة حضاريَّة جميلة ، ستمنحك عندما تكبر لونًا إجتماعيًا راقِيًا ،

هاقد قهرتَ الذاتية ، وتبعها إلى الداخل ، توقفا على عتبة سريرٍ وطبيبٍ يجلس في هدوءٍ ، ينظف أداة

حديديَّة يمكن إستعمالها كأداة لحقن أو نقل الدم .

من المتبرع؟

ردت كيلانا .

وتراقصت أمواج ماءٍ على حدقتها .

الطبيب: هل أنت متأثرة ؟ قالها كمن مَلِكَ الحق لفعلٍ وقولٍ كلَّ ما يريد .

المرأة: لا أنا أحمل بطاقة فصيلة الدم ولا هو ، لكننا نعرف فصيلتنا .

الطبيب فيمن يفصل في الأمر: لا تغوصا بقدما كما بعيدًا ، أعيّرُ لكما ليس بالكثير.

يأخذا لهما مجلسًا أين تتناوب عليهما ممرضتان ، تاَخذا قطرتا دمٍ ، وهما كذلك نظر الطبيب للصبي و

راح صوته يمحي الحدود .

الطبيب: على حسب الظن لست من جنسيتنا ؟

لا ردَّ الصبي.. لكنني عربي الجذور،لكن باريسي المولد والجنسيَّة .

الطبيب: معك نصلُ إلى أبعد مدى ، وتبرعك يتجاوز الحدود ، ما دام هناك إنسانٌ مشتكي نحن معه، ولا

يزال ينثر شرحاته بعيدًا ، لتستغرق الإبرة في دورها ، بينما ترقبه المرأة وجماعة المطببين.

وإسترسل الصبي في الإهتمام بينما قالت المطببة.

نتعلم من الحياة كيف نتجاوز صعابها ، من كان بالصحَّة أصبح مريضًا ، ومن يستطع لماذا لا يساعد المحتاج .

الطفل: من المرضى من صبر حتى كره الصبر.

الممرضة: ووجد أبوابنا مفتوحة هكذا فحررناه من السجن، ومثلكم من يساعدونهم، والأجر على الله.

الصبي: أحبُّ الجرأة ، وأصرُّ عليها ، ما حلى الإضطهاد ، فتابعٍ لطريقٍ إلى حربٍ ، ولا سالك لدربٍ

محكمِ السدْ.

هنا كان الكيس قد بلغ الغاية ولم يعد في مقدوره الوسع للمزيد.

تجنب السرير ليجلس إلى مقعد صغير حمل من المقومات ما يسد النافذ من الطاقة ، نظر إلى المرأة

وكان جسدها ضعيفٌ ضعف المرأة ، وبرأسٍ حمل تاجاً على مهْلٍ ، تملأت الروح وتزحزحت عن

المكان لإنتهاء الفعل والذي أتاح لها تغيير المكان ، لتجلس وتأخذ ظرفًا هادئًا تستعيد حالتها السابقة.

....

تماشى في جمرة الشمس ولا طفتها هبات الريح ، وأجساد تصرخ لقد ضحَّ جسدي ما كفى ، حتى

تزحزح عنها الغرور ، حتى ذاب عنها إنتعاشها .

سارا في طريق واحد واسعٍ تعبد هذه سنين تَعَرَجَ إلى فتحة زجاجية ، وتصاحبا كان محلاً

سألت عيناها عن المكان ، فأجابتها الأدويَّة : هذه صيدليَّة عامرة ، نأخذ بعد المقومات والفتامين السريعة

الفاعليَّة ونعود.

تمرَّر طريقًا نظيفًا ، وتعمقا فيه بخطى واسعة تحرَّرا فيه من النظرات وتبعة العيون ، ولا تزال الرسائل

تبعث لهما وتحرر آلاف الكلمات ، وأطلق السراح في كلِّ مكانٍ على الوافدين من الأجساد.

وإسترسلا بكلِّ ثقةٍ ، إنقلب الصبي يُقلب في مختلف الجوانب وفجأة إنقطع إلى مكانٍ يظهر بعيدًا .

الولد: هذه الطريق إلى أين تؤدي ، وإلى أين تصل ؟

المرأة الشابة: طريقٌ رابطٌ بين الغرب والشرق ، بين الجزائر ووهران.

الولد: ماذا هناك ؟ ينظر بناية تلبست أعلامٍ وتجمعت فيها نساء ورجال كثُرْ .

المرأة الشابة: هو يومٌ للشهيد ، في مثل هذا اليوم من شهر فيفري يقف المجاهدين للتذاكر فيما خطَّه من

مروا من هنا .

وأشارت بيدها : أترى هذا ؟ شيخٌ في العشرة السابعة من العمر ، ويمكن أنَّه قارب السنوات الأخيرة

منها :

هذا مجاهدٌ ، حارب وشارك في الثورة التحريريَّة ، وهو الآن وهو رئيس فرع هذه المنظمة هنا، لا تعلم

كم يُرم المجاهد في تاريخنا ، لا نستطيع إلغاء دوره ، القدر والمكانة محفوظة بيننا ، كلَّ زمنٍ .

تركا الرجل يدخل بثقله المكان ، ويحشو جسده بين الجموع.

وأخذ بيدها يريده أن تقوده إلى أكثر من مكانٍ ، به حرارة و إشتياق يريد رؤية ما سَمِعه ، أدارت نحوه

عيناها وقالت:

ليس بالمكان الذي يأخذ الكثير من الوقت ، ولا بالمكان الذي يُجَوِزُ كلَّ فِعْلٍ ، مع ما نعيشه من تغيُّرِ أحوالٍ.

الولد: لماذا مع كلِّ إبتعادٍ عن المدن يقلُّ السكان وتختلف الحركة، فالناس يكاد ينعدمون هنا ؟

المرأة الشابة: ليس هذا بمشكل على قدر على ما يحوي المكان من الأنام يُعمرُ المكان، وأنت اليوم في

بلدية وادي سلي هي من أصغر البلديات ، والموجود بها ظاهرٌ أمام الملأْ.

توقف من إهتمَّ لسماع الإجابة وواصل

الولد: لي أمنية هل أستطيع مصادفتها ؟

المرأة الشابة: قل فما من شيء موجود مستحيل .

الولد: أريد زيارة والي ، أو زاوية ؟

المرأة الشابة: وهذا ماكنت أريد أخذك إليه ، الأن تقام ودعة رجال سلي ، نحنُ متجهين إليها ، سترى

الخيل والألبسة التقليديَّة ، هناك قرابة ما بين الماضي والحاضر وهناك تقليد مطوَّل ، سترى كيف تحرك

الأرض ، وتزرع وردة وردة .

وما هي إلاَّ لحظة إنتهاء الكلام حتى فتح القابض الباب وقال: المحطة المقبلة.

نزلا مترافقان أما م أرضٍ مزروعة ، وشدته المرأة من يده:

من هذه الجهة ، وإنقلب النظر إلى الجهة المقابلة ، مكانٌ تفتح على الملأ وحوى أجسادٌ كُثُرْ ، ومن كلِّ

الأعمار ولكن غلب الرجال على النساء ، لكن لا بأس ، مشى ممشى ترابي ضيّق ، وسط هذا قادم وهذا

أتٍ ، وأخذ الولد يرمي بنظره علَّه يحوي الموجودين.

الولد: إنهم على لباسٍ واحدٍ ، عباءة بيضاء يغطيها برنوس وبرٍقاربَ الإصفرار ، أمّا الشملة فيها على كلِّ الأنواع .

ردت ولا تزال تحتفظْ بِيده :

هذا اللباس هو قديمٌ ، لكنه تطوَّر وطُوِّر هذا زَمنٍ ، وأصبح يُلبس بسروالٍ أو تبانٍ أصفل العباءة ، مُرافقةً

بعكازٍ باليد، مثل لباس الأمير عبد القادر...وإستدركت ليس بنفس المعنى

وواصلت : إنَّه لباسٌ خاصٌ بزمنٍ لا يمكن القول غير هذا الزمن ، أما هذه الأحصنة هي فرسان أصيلة

نظر إلى لمَّةٍ واسعة من الأحصنة والفرسان ، بدأت تنتظم في صفٍ في ساحة سعت الكثير ، ووسع

أفقها ، يحمل كلَّ واحدٍ منهم سلاحًا (البارود) .

تهيأ الجميع للسباق ، وإنطلقت البندقية بالسلاح ، وتصعد دخانها السماء ، تمسحت أغلب الأحصنة

التراب بحذافرها ، وها هو القائم بالسباق يعلو بصفارة الإنطلاق ، فإنطلق الجمع الهائل من الفرسان في

عدوٍ في الفسح ، وعلت والهتاف مصاحبة لطلقات البارود وتناثرت بكلِّ إتجاهٍ ، علت الزغاريدُ من

الحناجر ، وطوَّقت النظرات جميع أماكن السباق سألها :

إلى أين المُنْتَهى ؟

ردت ولا تزال تُثَبِتُ عيونها بالمكان : إلى أخر وسع هذه الرقعة ثمَّ يعود الفرسان .

عجَّ المكان بالأجساد ، وبين بائعٍ ومُشتري وموائد لمُختلف الأطعمة غلب عليها الكُسكسْ ، كثُرَ التجوُّلُ و

سارا في رِضَا وأرجلٍ تشتهي أكثر إكتشافٍ للموجود ، الحياة صغيرة ، ومواضيع يومياتها كثيرة

تَصاحبَ فيها الهواء البارد والنسيم الناعم ، وتلبس بساطًا أخضر لم تَطُلْهُ الحرارة ، نظر إلى قدميه وقال

: أنظري نعليك مُثقلتين ؟ هل تستطعين جرهما؟

ردت : أنها الأرض المُستنقعة؟ من غير ممكنٍ السير هنا كَثيرًا ؟

تثاقل وتطاول بِعُنقه ، ليصلَ بِعُنقه إلى رؤوس الجميع ، بينما كانوا مُتناثِرين سُدى وهَبَاءٍ في رضى

للإستطلاع ، وتمتيع العين ، فُرسانٌ ذو رؤُحٍ وإسترسالٍ ، خرج إلى جَنْبٍ ليزداد تَمَتُعًا ، وعيونهما في

حركةٍ تنثر النظرات في كلِّ وجهةٍ ، لسان حال من يتفرج ، تلبست الوجوه لباس المَقام ، وبَانَ تفاعلهما

وهما يسيران إلى الخارج .

الولد: هل سنعود؟قالها في فُضُولٍ..

تبسمت وغطت يَدَهُ بأصابعها وإتصلت به روحها من أرادت أن تتمسح عنه عذاب الإنتظار...

قالت: وهل ستعود العام القادم؟

الولد: وهل سأرحل ؟

المرأة الشابة: بالطبع..سترحل ..وبِبَداهةٍ : لك كلَّ شيء هُناك ؟ وَالِديك؟ دراستك؟ ..أصدقائك ؟ وكلَّ

شيء إعتدت عليهِ..

وفي ضُعْفِ من لا يعرف ما يقول ومتَغَلِبًا ..لكن هنا تَجدين من تحبينهم.

المرأة : ويوجد المهرجان متَبسمةٍ ؟ لم تُجب عن سؤالي ؟ فالمهرجان يَحَطُّ بالمكان ، الجهة الشرقيَّة لبلديَّة وادي سلي .

وهما يعودان ينتسبان إلى جماعةٍ يؤمها الناس من كلَّ الجهات ، غير أنَّ المكان يجهد النفس بين غادٍ و

اَتٍ .

المرأة الشابة: يمكن أنَّ الرحلة كانت مُجْهدةٍ لكنها ممتعة..

الولد: وكيف تدعى هذه الوعدة ؟

ردت: وَعدت رِجال سَلِي ؟

وراح يردُ الإسم في خِفَةٍ ..

المرأة : هي وصيَّة الأجداد ، وعلى نمطِ من سبقْ.

وإبتعدى عن مكان المهرجان ، وهاهو صوت الاَذان يعلو ويبتعد في الأفاق .

أخذ وَسْع المكانوطول الطريق إلى مكان الحافلة ينشدان العودة وتفلتا وسط الزحام حتى أفسح لهما الحظ بمقعدين .

وعلى طول الطريق أخذ يُملي عيونهما بما يلاقيان .

عمَّ فصل الصيف واِحتضن المكان النهار ، وعادةً ما يشتكي المسافرون من حرارة هذا الزمان والناقلة.

لم يَدُم من الزَمن إلاَّ نصف ساعة وكان معتصما من الحرارة .

الولد: وكأننا على لَغَمٍ ؟

قالها في هدوءٍ مُستمرٍ تجنبَ به أيَّة تضمر يزاحمه ، لكنَّ جبينه فَضَحه ، وفاضت حبات العرق تسببت

فيها ماكان من الشمس وأشعتها. ووجدانٍ أحرٍ أكثر من حصارٍ كان مُحاصراً بهِ ، أراد إستمرار الحديث

لكنَّ الوقت ثقيل والملائم عند التوقف التعرج نحوى أحد الباعة لملأ الجسم الطاقة كما يجب

.

المرأة الشابة: لا تُتْعب نفسك الاَن ندخل المدينة ونتوقف بمكانٍ لنرتاح .

وتفتحت شفتاه بِكلامٍ قليل يرفع به التحدي ، ناسخًا صبيًا فريدًا ، لا يهتم لسفاسفَ الأمور ، لكن مشاعر

المرأة هي أكبر من الوصفِ وتَرَيَثت في الكلام ، و إمتدت عيونها إلى بعيدٍ على طول الطريق ، ترتفع

الجبال وتنخفض وصخورٍ تصرخ من الأرض ، حذفت أجزاؤٌ كثيرة منها لتفتح الطريق أمام المارة .

المرأة الشابة: كان المكان شاغِرٍ والآن كما ترى ...

لكنْ منظره وكأنه كهفٌ تَخاله مُنْشَقٌ عن سطح الأرض .

ملأت عيونه الفراغ ، ولا تزال الطريق طويلة ، هذا الحين تتوقف العجلات متمردة لا تريد ولا تستطيع

الإستمرار .

الولد: هل هناك عَطَبٌ ؟

لا ردتْ ..ها قد حَلَلْنا بالمدينة..

الولد: وهل يُمهلنا لِننزل ؟

المرأة : هذه رحلة العمر ، وإطمئن إنَّك لم ترى كلَّ شيء ، ستكون لنا رحلات أُخرى إن تشاء .

إنهما في مدخل المدينة ولا يزال المشوار طويلاً ، عليه حصرٍ ما في القلب ، لا كسره .

المرأة الشابة : أتشاهد هذه المباني إنها جديدة ، من قبلٍ كان المكان خلاءً

هنا رنَّ هاتفها المحمول، وفتحته..

من ..متى جاء؟ إننا وسط المدينة بمحاذات المسجد، لا ..بل أعرفه لن ينتظر بل سيأتي..إنه مجنونٌ..

نظر إليها ولم يُدرك القول لكنه أحسَّ بالمفاجئة..

....

وإذا بِرَجُلٍ طويل وعريضٍ يقطع عليهم الطريق ، وفجأةً تبسم الطفل وأسرعت القهقهة من شدقيه

وأسرع إلى الرجل فاتحًا أمامه ذراعيه ، وأطلق السراح للروح ، حَمَلَهُ الرجل بين ذراعيه ، وضمه إلى

صدره ، وما فتح عيونه إلى على عيون السيّدة وهي تتبسم له.

لكنه كان قد أحسَّ بالتسليم ، وتثاقل على الكتف ، وبشدَّةٍ أنزله من حضنه ومدَّ يُمناه إليها وأسرعت يدها

إليه بالتسليم ..

الرجل: هل أثقلت عليك إستضافته؟

المرأة الشابة: لا بل كثير الدُعابة ..

الرجل: هو من ألحَّ عليا على الدخول للجزائر حتى تلحنت الكلمات على شفاهه ، وأصبح لا يَجْلِسُ إليِ

إلاَّ تلقفني بطلبه إحملني إلى هناك.

الرجل: كيف وجدتها ؟ هل ستتركها ؟

لكنه منغمسٌ به ، ولا يزال لم يرفع رأسه عنه ، ويتتابع الكلام وسالت عيونه بفيض الأحاديث وإشتياقٌ

صعبُ التغييبْ وما حمل إليه من المفاجأة ، إنها ورقة التوهان ، والتي كان يبحث عنها ساقها إليه القدر

الرجل: لماذا لا تتكلم ؟

ردَّ أنَّه كان إليه مُشتاقٌ ولما راَه نسى كلَّ الشوق..

....

حَملَهُما بسيارته المركونة على حافة الطريق جَنْبَ بُسْتانِ بُرتقالٍ في مؤخرة البلديَّة ..

المرأة الشابة: متوجهة للسيّد: ألا يُناديكَ أبي ؟ ما سَمِعتُها من فَاهِه مُنذ وَفَدْتَ؟

الرجل: إسألي صاحب الشأن؟

الولد: لقد تعودتُ على مناداته بِإسمه ؟

المرأة: جميلٌ كنتُ أظنُكَ لا تناديه أصلاً؟

الرجل: وهل إنتهت الرحلة؟ وماذا بَعْدُ في المذكرة اليوميَّة.

المرأة: ما بقي هو عليك سنترك لكَ القيادة فسر بنا أينما تشاء.

اَخذكما معي ، لايزال اليوم في أوَّله ، وسنعودُ مُبَكِرًا ، وجهتنا البحر، نذهب إلى مدينة تنس مراَها يُسكت

يُسْكت اللِسان ، وهواءها يحيّ النَوَام.

لا تزالُ لغة العيون تَحُفُّ المكان ، والخيال أحلامٌ تَرُفُّ بِجناحانِ ، فارقوا المدينة وإتجهوا إلى المدينة و

قُضِيَ من الطريق أطْولَه ، إستهلكت الشمس شطْرًا من السماء وتوسطتها و تدببت كعُضْوٍ لا زمٍ وسط

البطن ، لم يكنا ليشعرا بها والبرودة بالداخل ألمت بهما ، وهاهم وكلما تقدمت العجلات إلاَّ إنهارت من

أمَامَهما حياة ووضعٍ كان .

دخلوا بِسَاطًا من الأرض ، وأرضٍ مُمَزقةٍ بين طالحٍ وداني ، مجاري مائيَّة على حافة الطريق وهناك بُعدَ

الحدقة سَرَحَ قطيعُ البقر بدون سارحٍ يَنْهم ما بالأرض من بقايا عُشْبٍ جفَّ وأصبحَ تِبْنٍ وتباعدت يمامات

هنا وهناك تَغْرِقُ في البسط بعدما مكرها فصلُ الربيع ،وفسح المجال لصيْفٍ بشمسٍ حارقة .

وغير بعيدٍ ظَهَرَ هناك في العالي وعلى هضبةٍ عالية وعريضةٍ ،تربعَ في مبنى وحيدٍ مُثيرٍومُلْهِمٍ، المكان

دَفين لِوحده وبانَ من بعيدٍ يَصرخ ، لكن الشِفاه شدتْ همسات اللسان وحاصرت الكلمات والتي تريد

الإستفسار لِترمي الشك عن المبنى الأخضر التربيعي الشكل ، ولم يزِد طوله عن عشرة أمتارٍ ومَثِيلَتُها

على العرض ، بُنيَ السطح بِشكلِ قُبَةٍ صغيرة خضراء

الرجل: (هذا هو سيدي مْعَمَرْ)الولي الصالح.

الولد: هذا البيت الصغير ، أين ينام هو وعائلته؟

المرأة الشابة: لا هو قبره وليس بيته.

إنقلب الرجل إلى جهة المرأة ، يريد إدراك المكان بأجمعه : هذا هو الولي والناس تأتي لزيارته من كلِّ

حَدْبٍ ، وتلقاه موضوع جلساتٍ كُثُر ، كما له شهرةً داخل وخارج البلاد ، وعُرفَه لا يزال مُتَبَعْ ، ولا

يُمكن إنكار فَضْلِه في تَمْكين المَغلوبِ عليهم من تَعمِير بَيتِه، ومن خلال جوازه للطقس المشهور(قطعة

عشرين سنتيم)مَهْرٍ للعروسِ.

المرأة الشابة : العادة إنقطعت مع الزمن؟

الرجل: لا يُمكننا الإستغراق مع زمنٍ ومن حولنا سريعُ التحرك ، كما أنه عُرْفٌ إستغرق التقاليد ودامت

معه الإحتفالات الكثير من الليالي .

سأل الصبي : هل نستطيع النزول .

لكن الرجل مانَعَ بحجة أنهم في مكانٍ منقطعٍ ، وحسبَ المُتعاقد معه قطاع الطرق أماكنٌ كهذه هي تُحفُ

إستحوذت الإهتمام، والإنسان يستلم فيها للهوان .

واصلوا الطريق ،وأحواض الفكر تتملأ الأفكار ، وإحتجَّ ما طفح منها.

السيّدة: هناك سيدي مروان لا يبعد كثيرًا عن الولي السابق ،لكنه بَعيدٌ عن العيون ومقامه لا تصله إلاَّ

إلاَّ إذا قصده في يومٍ خاصٍ.

بعد زمنٍ قصيرٍ بدأت الجبال تظهر صاح الصبي نحن نتشرف بالدخول إلى المدينة وَواصل :لقد زرتها

من قبلٍ.

تبسطت سهولٌ خضراء على حافة الطريق وعلى حوافها جبالٌ صخريَّة وترابية مكسوَّةٌ ، ومن هنا وهناك تدببت صخورٌ متمردةٌ عن الصخرة الكبيرة وترامت على فوهة الواد.

تثبتت في الماء كمن غمَزتْ عن سطحه وترافعت المقام كمن لا يعفو عن قدرٍ محتومٍ لها .

تَمَرَرت المِياه بين الصخور وهمدت في الواد ، وشقَتْ طريقٌ الجبل ذهبت في طول الكيلومترات

وبعد مضي الوقت لا حت مدينة تنس.وأشارت المرأة بأصبعها هو ذا مسجد طارق ابن زياد إنَّه شهابُ

الدين ومعمارٌ قويٌّ ولا يزال .

وهو مَعقلٌ روحاني وصل صيته إلى حدود المعمورة ، وتلفتت إلى السيّد لا بدَّ وأنَّك تعرف عنه الكثير

هو طارق اَبن زياد وأخذ مضيق جبل طارق إسمه ، بطَلٌ منح التاريخ كامل قُوَتِه وصرامته وفراسته

فارسُ حمل السيف ، مُقاتلٌ تحرر من الوهم المفروض ذاك الزمان .

كانوا قد تباعدوا في المسير ، وإهتدوا بالسيارات السالكة ، وإنطلقت تُفسر ما ترى وما بَخلت بما عرفتْ

مُتسايرة بحقيقة تاريخيَّة ،وإقتربوا من مكان خالٍ ،وسلكوا دربًا ضيّقًا حتى توقفوا عند بابٍ حديدي.

لم يكن متَحقِقًا من المكان ، وصدفةً خرج رجلٌ من مكانٍ قريبٍ تخطى الرصيف مُحاولاً عبور الطريق و

دون أن يبرح مكانه خَفَضَ الزجاج قليلاً وقال:

هل هذا هو المتحف ؟

وتلقى التأكيد، أسرع وركن ونزَلَ ، تخطى ثلاثتهم عتبة المتحف إلى بقايا وأثارٍ من كلِّ الأصناف ، أولاه

شريطٌ مُمْتد على أمتارٍ بعيدةٍ ،وأوقفه عمودٌ من بناية فينيقيَّة وتلتهُ صخرة مُسَطحةٌ منقوشة بنقوشٍ ظاهرة

مكتوبٌ عليها نقوشٌ رومانيَّة في قطع ورقٍ صغيرة ملصقة على أثرْ .

وساروا على أرضٍ مُعْشوشبة تدببت به هنا وهناك شَقَفٌ من كلِّ نوعٍ ، تُقنع المارة بضرورة إكتشافها و

الظروف التي كانت هنا ، وفجأة توقفت عيونُ غير بعيدٍ توجه السيّد وتبعه الإثنان جرةٌ كبيرة تكاد تغطي

ربع المتحف طولاً وعرضًا ،وشدَّة وقوَّةٌ مُتثبتةٌ بالأرض تدلى برأسه بداخلها ، وجدها خاليَّة حتى أنَّه سأل :

أين ماء المطر ، لقد أمطرت هذه الأيام ؟، أو ليست معرضًا على أربعة فصولٍ ؟ فكيف تحكُمُ صلابتها

كُلُّ هذا الزمن؟

ردَّ المُرشد هذه الجرَّة من العهد الإستعماري ، وجدها أحدُ الفلاحين مغروسة ومُغطات بالتراب فجلبها

إلى المتحف طبعًا هو مُثابٌ على فِعْلِه لكن : مثلَ هذه الجرَّة هي تُحفة لن تجد لها مثيلاً ، وعلَّ منقوشاتها

حاضرةٌ على بعضِ التحف العموميَّة ، كما أنَّ عقْلٌ فعَّالٌ لا يُمكنه إهمال أهميتها فلا يتلمسها بسوءٍ ..

لكن عن المطر ، وتعرضها للظروف والأثر فإعلم أنَّ مِيَاه المَطر تزيدها صلابة .

ولا يزالون يتصفحون تُحف المتحف ، وقَلَبُوا أماكنه وتأملُ الفلسفة التاريخيَّة التي يحملها المكان ، وراح

يتأمل عُصفورًا صغيرًا حطَّ على سطح فسيفساء بالأرض لا يُحاربه أحدًا متحرِرًا ، وأعجبته الطباعة

الحيَّة والزخرفات راح يتنقل بين الرسومات وحصلَ أن ترك المكان خلفه .

المرأة : أرأيت لكلِّ هذا الكون الواسع كلَّ هذه القدرة على الإحتضان وأفسح لكلِّ هذه الحياة ؟

الرجل: هناك إنسانيَّة وعصورٌ لكلِّ وقتٍ معلومٍ ، ونحن نتعلم من هذه المعالم ما كان ممن كانوا قبلنا

هي مضامين وصفحات تحكي مذاهب وفلسفات إنسانيَّة هي رحلات شاقة كمن يصعد الجبل، أو ذاك

المُسافر في باخرة عابرٌ لِقارةٍ .

ودنوا جميعها إلى الداخل أين تواجدت نقوشٌ وأدوات تاريخيَّة أخرى ، أقدم عصرٍ بها عصرُ الفنيقيين

وآخر فترةٍ هي فترة المعمرين .

لم يَغفلْ جَفْنًا عن ما كان بالمكان ، ودار الحال على ترك المكان إلى مكانٍ آخر هذه المرَّة كان المكان

أجمل من أوَّله، ودخلوا المدينة وعرَّجوا إلى طريقٍ عمومي تملأ بالمارة.

الساعة تُقارب الواحدة بعد الظهر ، وداروا حول بناية نوافذها تلتصق بالأرض .

الصبي: كيف لهذه البناية بخفض صاحبها للنوافذ هكذا ؟

لكن البناية كانت عبارة عن بقاع الأرض فلا يولَج إلاَّ بدرجٍ ، ووصل بِخياله إلى أبعد مكانٍ بالبناية و

الوهم كان أسرع من الحقيقة، لكنها تشييدٌ حقيقي وليس خيالي إلاَّ أنَّ بابها كان إلى الجهة الأخرى

كثُرت الأجساد مع المساء في سعي بكلِّ إتجاه لكلٍ فيما سعى ..

الرجل: المال هو المُحرِكُ لهذه الأنام ..وإن كان شهوة فهو الساد لمَلذات الدنيا ..المال هو الحامل للفرح

والمسرات وإن خالف أحدٌ فالألاف يُوافق على رأيي ، هذا الزمن يخضع لجدولٍ زمني صعبْ ، ومن

أحبَّ الهنا لا يترك نفسه لِعَتمة الليل فالعيون لا تغفى على ضجَرٍ ولا على شرودٍ لِذهنٍ .

وواصل: وأن تضع قواعدًا ترفع مقام الإنسان لِتُجاوِزْ القيد والمُنْغَلقْ ، لأنَّ هناك ألف من من يفتح لك

الباب والبحر لن يخلوا من البواخر وإلاَّ كيف العبور.

الدنيا حريَّة وإستمتاعٍ وعومٌ إلى بعيدٍ ، تخرج منها العديد من البحارين والذين أمتعونا بما إكتشفوا

فلن تكون بحدود النظر ، فما من حجرٍ رمي بالبحر وبقي يطفو على السطح .

كانت الأذان تسمع للسيّد والعيون تسترجع وتستعيد ما إحتفظت به الذاكرة من رصيد للتاريخ ، وماكان

من قوَّة وضعفٍ لتاريخٍ مرَّ من هنا .

السيّد هو طبيبٌ إختصاص عِلل القلب ،حائز على دكتوراه دولة ، درس بالجامعة الأوربيَّة، وقدّم لها الكثير من عِلْمِهِ ، برعَ في الكتابة والشعر والصحافة ، ملك شركة صناعة أدوات وتَجْهيزاتِ

الكومبيوتر بأوروبا ، وصل هذا اليوم لأجلٍ ضرورة ألزمته عدم التخليّ عَنِ السيّدة وهي في أزمتها...

وما يزالون يعبرون الأماكن ، مروا أمام جمعٍ غفيرٍ أمام مكتب البريد ،وتجعٍ اَخر حول اَلة إلكترونيَّة

تبرز من الحائط ، قالت دونما سماعٍ لسؤال : هذه الأزمة تهزُّ البلاد هذا زَمنٍ .. ولا مفرَّ من مشاركة

هؤلاء الطابور إذا كنت تحتاج مالاً، طبعًا؟

الرجل: وقد أسرع من لا يريد التروي ، مع هذا الحشد لا أريد مالاً ، اِكتفيت ، إنني مِمَن يحبون السرعة

وواصل: إنَّه حكم القوي على الضعيف ، ونحنُ هنا مُجبرون لا مُخيَرون، البائس والميؤوس مِنه .

هنا تدخلت المرأة كمن أحسَّ بِإنغلاق الحديث وتَحوله على الإعاقة :

هنا لاأستطيع التفريق بين الإنسان الطبيب والمُفكر والمعتمد للمنطق في الحلول؟ وأنت أين من هؤلاء؟

الرجل: هو كلام يَهدف إلى البِناء ومُنْطَلقه القنَاعة الرُوحيَّة ..كلُّ ما رأيناه كان أثار مدينة قديمة ، كلُّ ما

ما هناك يَتَحدث عن وجود إنسانٍ عاش معركة هنا أو كِفاحٍ من أجلِ البقاء .

: فما دورُ الإنسان الأدبي هنا؟؟

المرأة : في مقالك هذا نجد الإنسان المحلي مُتَجِه بِرُمته إلى الحياة العاديَّة لَديه ، إنسان ذو محدوديَّة وإن

كان هناك مُهتَمٌ ، فالمحدوديَّة ترسم الحدود ولا تترك أيَّة ثقوبٍ ، هناك إنسانٌ يحُثُّ الخطى وصِبْيَة و

رُضَعٌ تشبعوا بممزوج الدم والدواء ، لا بشُتاتٍ يرتدي بدلة الثُوار ؟ .

إخترتُ الصحافة لأنها طريقٌ للحريَّة والإستقلال ، وأجدها فدائية أكثر؟

ردتْ المرأة أن ردَّه هذا أكيد ، ولكن.. ولتحقيق ما نُريد يجب العمل على زوال المُشكل ، التحلي بالصبر

يُلين ما أطاله الزمن وقواه ، ومن ذا وَجَدَ صَافِ الأمر ، والصابر على عذاب الروح هو قاهرها لأنَّ لا

الإلحَاحْ ولا الدموع تَمحي التعصب إذ كانت هناك شِدَّة.. فما تقوله تَضْحك به على منْ؟

الرجل: لا تتشددي في الأحكام؟

ولا يزال الحَديث أوتارَ قِيثار يَدرُّ أصْواتًا في هواء ، يقهَر الصَمَاتْ ويُثير الحَماسة مِن حَديث إلى اَخر .

سَأل الصبي عن إمكانيّة التوقف ، وإستغلال جمال مكان مما يحوط بهم ، وكان له ما يُريد ، إقتربا من

شاطئٍ رملي حدَّ حدوده جدارٍ قصيرٍ ظهرت عليه الشدَّة رُغْمَ القِدم ، فكان للشاطئ وما حاز من المكان .

وقفوا متقدمين أكثر من البحر ، وتقدمهم السيّد وتلونت عيونه بألوان الأمان الداخلي ، كم هو مُريحٌ

إحْسَاسُك بالرَاحة ، بالهدوء الروحاني ، وأنت تسمع وتعيش مُلكك لِكيانكَ لوحدك .

لا شكَ في أنَّ هذا ما يُسَمَى الإنطلاق من العَدم ومن ذاتٍ تتجاذب إلى الهُوة وتحملك إلى اللذة التوحديَّة

أخذوا أقرب مكان لهم من البَحْرِ مجلِسًا لَهُم وأخذ في الحَديثْ وهُو يَضَع جِسْمه المُمْتَلئْ على الكُرسي

الرجل: أتَعْلَمِي مَاهو الشَيء الذِي يُعَرقِل التَقَدم ؟

رَدَّ بِدون إنتظارٍ.. الحِوار، وُنقص الحِوار بين الفِئات المُختلفة والمُحتاجة لَه كضَرورة للإحْتِفاظ بِالبَقاء .

هذا سَبَبٌ ظاهِرٌ ، ثمَّ أنَّ التقطعات المتكررة في مسرح الحياة عرضت الإنسان للمضاربة ، وظَهرللرأي

المُسْتَغِلْ ،والمُشَغِلْ، جعلنا نعيشُ في مَلَكِيَّة تُحِبُ مِلْكِيَّة التغيير .

وهنا يمكننا الحديث عن أناسٍ أصحاب دورٍ عظيمٍ في هذا الحاصل كلِّهِ ، وكلَّ ما حدثَ معنا من تطوُّر

أصبح يُنْفى وتُثبِتَ بَدَله : العَرَب أصْحَاب تَبعيَّة وضُعْفٍ ..

والمعلوم أنَّ المُجْتَمعات تعيش حالة تغيُّر وتَطوُّرما بين حالة عيشٍ ومَنحِ ما تملك من قدراتٍ وإستعراضٍ

لِعَضلاتٍ ، واَخَرٌ يبقى له من هذه الجُمَل إلاَّ الكلمات .

أسئلة عقيمة لا يُمكن إعتمادها ، ثمَّ أنَّ وجودنا الحالي إرتكز على قدراتنا في الحفاظ على هذا المقام ،كما

أننا بمدينة كمدينة الشلف هذه حضورها أكبر بكثير من العديد من المُدن ، وسلسلة دُنيا كانت منذُ أغبر

الأزمان ، هناك إنسان إستغلَّ هذه الأرض وهيأها لِنفسه ليُطيل البقاء فلم يترك لا وادٍ ولا بَحرٍ إلاَّ وإنهالَ

منه فهل نأتي نحنُ ونرمي أنفسنا تحت أقدام الضعفْ؟

وواصل: لكن هذا الرُكُودُ وهذه الحياة المُتَكَرِرَة والغائب عنها التمتع بالمُغامرة لا يرضاها أحدٌ ، وكأننا

وكأننا نعيش على درجات سُلَمْ زمني مُعَيَنْ ومُحَدَدٍ ، لا أريدُ خِفْضَ المَعْنَوِيَات ، وإنما أريدُ إستغلال

الموجود وتدقيق النظر لِمُمَارَسة الحياة مِثلها في مَن تَقدَمُوا عَنا، حياةٌ نَتَجاوَزُ بها القيد ونَحُطُّ قواعِدٌ لنا

تَرْفَعُ المَقَامْ ، إنَّه التواجد لِثواني من يملأ الوجود لأزمانٍ وأزمانٍ ، وإننا أصحاب تواجدٍ طويلْ وفيضٍ

قَصيرٍ .

المرأة ولا تزال تُمْلِي عُيونها بجمالِ البحرِ :

إنَّ الحُريَّة مثلَ الشِعْرِ ، فهل تُنْكِرْ صِنَاعةُ الشِعْرِ بِما يَحتاجُه من تدقيقٍ للنظرِ ومن طرْحٍ وَمُسَايَرَة ، لكنْ

التعبْ عاهَةُ القَلْبِ ، وتِكراره ترسيخٌ للمرضْ .

سألها السيّد عن القصدِ فَرَدَتْ وتَبِعَتهُ بِنَظْرَةٍ مَقاصديَّة تُمْلي الوَجْهَ إبْهَامٍ :

من منا لا يَعرِفُ طريقَهُ ،إننا نَحْيَا حيَاة وَجَبَ هَدَفُها أولى الأمورِ ،وإنني أهتدي إلى عدَمِ التشبُهِ بالحَيوَانِ

لأنَّ لَنا أرواحٌ تَقودُها عُقُولٌ ،لا نرضى بالفكر الإقصائي طولَ العُمْرِ.

هنا تأكد السيّدُ من وجوبِ العودة إلى داخِلَ المَدينة والشمس تجاوزت حُدودَ النَظَرْ، وحطت قواعدها على

أفُقٍ غَمَرَ فَيْضَ النظرْ ، وتَسَحَبَ أحواضَ الفِكْرِ المُتَدَفِقَة أفْكَارٍ.

إنساق جميعُهم راجلين إلى حريَّةٍ وشعورٍ و إستمتَاعٍ يطفحُ بالأحاسيس ،وتَمَنَعَ شُرود الذِهنِ، وأخذ مَنْظرُ

الإنسانُ الصوفي العاشق لله مَظْهَرًا لهُ ، مُسْتمعًا لما يَحْكِيه القلب .

وإنطلقت العجلات في سُرعة دورانيَّة لا يَحُدُها البَصَر ، و إعتزلت الأجساد النسمات، وأوقف زحفها

الزُجاجُ ، وراحت الأفكار تتفاعل من جديدٍ ،وتُدونُ ما إحتفظت به هذه ساعاتٍ ، وهاهي الأشعة تصرُّ

على نفْحٍ إضافِيْ لِلأشعَّة .

السيّد: لكننا كما وُلِدْنا يقولُها بأسى ،لم نُعطي للحياة حقَّها غير ما نأكل ونشرب ونَلْبَس ، حتى المعمارهو

مِعمارٌ عادي وإني إتبعت ما حدثَ مع هزاتٍ عجلة المَوات وفُقدان الكثير .

المرأة: لكننا نعلمُ كلَّ ذلك إننا نعلمُ ما يُعْلَمُ ، لكنها الحاجة أقوى مما نملك، وإننا نحلُمُ كثيرًا بما نريد وما

نُحققه قليلٌ جدًا ، لقد جلسْتُ إلى الكثير وتحدثت إلى أعدادٍ لا تُحصَى من أهل الرأي في البيئة والإجتماع

لَكنَني وجدتها حُدوُدٌ مرسومةٍ ، حتى اليوم الوطني للجودة في التاسع عشرٍ من ديسمبر لم يَعُدْ يَومًا كافيًا

لِمنح الجودة حقها ، ثمَّ إننا شَعْبٌ يَعْرِفُ حقوق الإنسان ويُقدرها .

وردَّ في سرعةٍ كمنْ كان ينتظر نهاية شطرَ الحديث :

كم لونًا يتلوَّنْ البشر ، سلِّي الأيام تُخبرك ما في مقدور الإنسان أن يفعَلْ ، إننا أمَّةٌ تحمِلُ الصمت ومفاتيحٌ

للغلقْ والكتمان ، ألا يُمكننا تغيير ما بأنفسنا وهل نحيا ونعيش على مُخلفاتِ خُطَى من كان قَبْلَنا ونصمُتْ.

حتى أننا أخذنا السكوت كفَرَجٍ وحَلٍ ، وتحَمَلنَا عِبْء الصَمْت ، ولم نُكلَفْ أنفسنا ما كان من الأمسِ .

....

لم تَكُنْ لِترد وقد توقفت العجلات عند باب العِمارة التي تسكنها هذه أيامٍ فقطٍ ، حملت بضعة كُتبٍ في

يُمناها وفتحت ونزلت بينما تبعها الطفلِ ، وأطفأ السيّد المُحَرِك وإرْتَفَعَت رقبتهُ تنظُرُ للعُلُوّ .

السيّد: ماذا بعد الطابق الخامس ؟

المرأة: لا شيء

كانت عيونه تسأل وتجيب وعلَّه أكمل ناطِحة السحاب بِفِكْرِه ، وعِوَضَ الخمسة طار إلى بعيدٍ .

وبِمُجَرَدِ ما ظهر من الكلام صَمَتَ ولم يَزِدْ .

لم تَكُنْ لِتُواصِل الحديث دونما فترةٍ لراحة فاصِلة بين ماكان وما اَتٍ ، وسارت إلى الداخل مُنقادين

مَعَها والخُطُوات زَخُّ حروفٍ وكلامٍ ، جلسوا وصمتوا ، وتحملت مُهمةُ التضييفِ ، لكن حسبَ النظرات

مالت إلى كثير القول.

المرأة: نحنُ العرب نعيشُ في بيوتٍ كما الطَيْرُ في القفص مَهزومٌ ، وهناك ومنَّا من يَرى فيه الحياة و

يؤمِنُ إيمانًا واسِعًا بِقبْرِ الدُنيا ، و أرى أنَّه مَلْجأً فقط ،ِمثله مِثل الظُلْمة عِند هُجومِ المطرِ .

وَهنا يَشُدُّ عنها ما حَمَلتْ إليهِ:

أتريدين العيش طليقة ؟

البيتُ اَمانٍ وكم نَسْمَع عن أسَى مَن باتَ خَارج جُدرانٍ تَؤمُهُ .

أسرعت بالرأي : أريد الإنطلاق وعدم تحميلْ الجُدرانِ بلايَانَا ،نحيَا لأننا نصنع الحياة ونتقدَّم فيها،و نزرع بعدما وَجَدنا الأرض ، ونحصِدْ ما سَبَقَ زرعُهُ .

بِنا من الينابيع ما يُوَزِعُ الاَمان على من يُريدُ الأمان .

يَرُدُ في سُرْعَةٍ: إننا ضِعافٌ ولسنا أقوياء ، نُلَحِنُ للحَياة أعْذبَ ألحان تُعيدُ الروح وتُصوّر لنا الجميل و

الرَاقي ، وأقل لكِ شيئًا هي أسرارٍ ، أتعلمي أنَّ حياة الغربيين كُلُها أسرارٍ ، وإنْ مَنحوك مَعْلُومَة فإعلمي

أنَهُم مَن يَعلَمُون فَائِدتها ، لهُم فيها السَبْقِ ولنا فيها ما بَقِيَ بَعْدُ ، ولهم الحقْ لأنهم جَوهرين وأصحَّاء

وواصلَ: إننا نعمَلُ بِجُهْدٍ ،نعم لنا حزامٌ مشدودٌ في وَسَطِ البَطْنِ نأخذ من هذا وذاكَ لكن لن نُطلِقَ اليدين

ضحيَّة إهمالٍ أو حَشدٍ وغيره هو العلم والقلب الصلب السباق اللذان نحتاجهما ، وكيف نتحركْ؟ وما لنا

وسيلةٌ ، كيف نُحرِك المشاريع ونحنُ مهزومين ؟

يُمكن لذلك أن يَتحقق لكن مع إنسانٍ يُولد وسَيَكبُرُ ، َ ويُذَوِبُ الصمَّ وما عثَّر القدمْ ، ونملك الغُبَار والذي

يُمَكِّنُ وجوده لِثواني أن يملأ الوجود لساعاتٍ ، ولا أريدُ الإطالة أو الإطاحة بل أريد إظهار نظرتي والتي

تُمكنُني من مَعْرِفةِ قواعدٌ تَرفعُ المَقام ، و تُجاوز القيد.

المرأة: وهي لا تزال تُمعن النظر بهِ:

أدركُ أننا تلا ميذٌ ، نعم تلاميذ في هذه الحصَّة هي حصَّة الحياة ، لها بدايَة ونِهايَة ،نحتاجُ فيها إلى ترتيب

مواضيع نَطْرَحُها ومنهجًا نتبِعُهُ، لَكِننا لا نحتاج إلى ما يرفع معنوياتنا .

السيِّد: بل نبذل الجهد لنزحف إلى الأمام ، وأن نضع نصب العين مختلف الصعاب ،وننظر حتى نزيل

العراقيل ،وإنّي أعلم أنَّ كلَّ تلميذ يستوعب القوَّة والضعف لديه ، لكنه مع الجماعة في قدرته تجاوز

الشرود الذهني ، لأنَّه متصِلٌ بغيره ،وإمكانية ليست في الإمكان ، لسنا بالمخترعين ، وليس منَّا المكتشف

لكننا نُجيد لفظ الكلام والصَحْ والغلط.

هُنا دَخل الطِفل ، ونِيرَان السَئمِ بَاديَّة على وجْهِه ، وتَسَمَعت وقْعَ خُطُوَاتِه البَطِيئة عَلى البَلاط البَراق.

المَرْأة: هَا قَد حَلَّ القاضي ، نأخذ قِسطًا من الراحة ، فلو سَألت نَفسك لَقَالت لَك أُرِيدها، فَهل نَسَيْت الراحة؟..... لكنَّه كان قد ذهبَ بعيدًا وغاب عن الوعي.

نَظَرته ، تَبَسَمت و إتجَهت للطفل: هاقد عَاد أبُوك؟؟؟

تَشَرَبَت العُيُون الهُدوء ، وسَكَنَ بِها ملمَحٌ رقيقٌ ، تنظُرُ مَا حَولَها ومَا غَمر أحْواض تَفكِيرهَا بِفيضٍ وطفحٍ

من الأفكار ، وجَابَت العَام من الحَديث مِن بِداية اللقاء إلى مَكان جُلوسِها هذا الحين، بلا إكتراثٍ .

ومع قِلَّة الوعْي لا يَرسَى أحدٌ على اَخر ويظْهر الصَمت رِحْلة سهلةٌ ،تُبطل الشِدَّة والصَعب ، والبَائس من

التَفكير ، وهنا يَلقى كلَّ واحدٍ نفسه في نسخةِ أحْلَام لَكِنْ بِعيونٍ تَذْبل بِسُرْعةٍ ، ونَواعم أضْعَاف الأحلام.

وأخَذ كُلٌ مَكانه ، ولم يَعُد في الإمكان ظُلمِ النفس أكثر ، لِأنَّ الظُلْمَ عَذَابٌ رُوحَانِي مَلَامِحَه مَعْنويَّة..

....

.....

وفي يومٍ جديدٍ نامت فيه ونهضت حبَّات الندى وإستيقضت مُتزحلقة على أوراق الشجر ومترنحة على

نغمْ الطير، يستيقظ الثلاثة تتابُعًا ، وبعُيونٍ ملاَ فيضٍ ، وحفاوة بيومٍ جديدٍ ،تقدمت السيّدة في مَشيةٍ هادئة

حالمة تُنعش وجهها بقطرات الماء والتي تحررت على سنحتها الرطبة ، وكأنها تريد إنفاق الكثير من

من الماء وإنعاش واجهتها.

جلسوا ثلاثتهم ، وتقدَّم السيّدُ إلى النافذة ووقف ،وإستغرق

السيّد: البنزين، السيارة تحتاجُ إلى بنزين ، كم تبعد أقرب محطة وُقودٍ عن بيتك؟

تتقدم إليه المرأة تريد إطلاعه على الطريق

المرأة: وكأنَّ سيارتك تعرف الأزمة التي نعيشها ،هناك سلاسل وطوابير لِمَلأ البنزين ، إنها أعوام الألفين وكيف ونحن في الثاني عشر بعده ولا زلنا على هذه الحالة.

وتقدمت نحوى النافذة ، ففتحت فاهاها .

المرأة: لماذا لم تَقُلْ لي؟

السيّد: وهل هناك أجمل من هذا؟

المرأة: وردت دون إطراء إنها مُفاجأة العام ، أتعلم أنَّ الثلج لم يسقط على مدينة الشلف والمدن الساخنة

الداخليَّة منذُ الستينات.

وجانبهما الصبي في إلقاء حبٍ على ما يكون وإلى الأصوات الغير كافٍ سماعها دون الإطِّلاع على ما

يكون.. الشارعُ يزخُّ ، إزداد حماسة وما قويَّ على شدِّ قدماه وهي تجري نحوى الباب ، حرجَ دونما نظرٍ

خلفَه ، ونزل وتبعته المرأة من الزجاج مُتعمِّقة في قيودِ قدماه وهما تُكبلانِ بثقل حبات الثلج المُتراصة .

الرجل: ألا تخرجي ، أونخرج معًا ، إذا شئْتِ ؟

السيِّدة: أنت من تعيش في الثلج تُريدُ الخُروج هنا لِلَعِبِ بالثلج؟ .

الرجل: لا. ولكن الحماسة تُعَدِّلْ سيرِ الأفكار ؟ ردَّ بِسُرعة.

وتُواصلُ المرأة: أتعلم هذا لم يحدث إلاَّ في الستينات من القرن العشرين .

وتوقفت ...وأوغلت في البعيد ولم يعد لها رجوعٌ ، ولا مقاومة لهدوءٍ وجداني أوقعها في الشباك ، توقفت

نظراتها على شرود العاشق من الصميم ، وغاصت مع ما تاعت به الحدقات ، ولم تعد لها قوَّة إلاَّ تجنبت

مُثقلة فلم يعد لها شدَّة ، إلاَّ أخذت مكانًا على أريكة قريبة.....

خرجت أولاهم ، وَ كانت فِي سيرها اَخراهم ، وتأني قلَّت عدد خطاه في رصانة من يتغلبُ إرادة فاقت

حدود الحَصْرِ و إنقلبَ الصَبي إليها :

ماذا هل تحاربين همومًا أم تحضرين لعملياتٍ حربيَّة ؟

ولا تزال تواصل السير : لا ..لا شيء مما تُريد بثَّه ..

الولد: وأين نحن ذاهبون الأن ؟ ..إننا نتبعكَ ..وتُتابع شقوقًا خلَّفها أثر قدمك على الثلج ، الوجدان رافعُ

التحدِّ .

ولا يزالون يركبون الموج الأبيض ،وتقلدت السيدة وشاحًا ، أمَّا السيِّد فتقوقع في مِعطفٍ أحكم شدَّه على

الجسد ، ولكنَّ السعال إشتدَّ وطغى على صوت المرأة ، وإحتدم لا يُقاوم ولا يُدانى ، وإعتصر ما بها من

من قوَّة ، وأيقظ قدرة فاصلة في إمكانيَّة صبرها .

نظر إليها السيِّد باعثًا بها أحاسيس الإهتمام ووهبها مشاعرُ عجَّلت بالسؤال:

السيِّد: هل تشتكي من ضيقٍ أو من بردٍ ؟حالتك تدعو على القلق؟

المرأة: هو سُعالٌ عابرٌ قضَّ المضجع ، وفجَّرني.

السيَّد: ومنذ متى والحال على ما أنت ؟

السيِّدة: منذ أيامٍ فقط..

الرجل: ربما منذ إفلاس شركتكِ؟

هنا نظرت إليه ، وكمن يُجبر على طرح ما بداخله ..ولكنها تجاوزته ..الأن أخفْ، لم يعد بي ضررٌ .

الرجل: إنَّه سجنٌ لن يفتح عن القلب إلاَّ بدواءٍ يُطَيِّبُ مَسَارَه.

وهدأت بها العاصفة وعادوا للإستمتاع بالثلج والشارع لا يسَعَ عددُ الأطفال المستَمتعين.

سَمِعْتُ أنَّكِ مناضلة لأجل مختلف الحريَّات ، العمل ، الحريَّة ، المرأة ،وكلُّ ما إقترب أو قاربهذا المفهوم

بالطبع شيء جميلٌ ، إذْ مُشاركة الآخر تفتح مجال الحوار وهذا ما نحتاجُه .

وتدافعت بها الجُمل في سُرعة من يَقتحم ليَنفذ :

أولم تتبع الشارع هذه الأيام ، إننا نعيش على فوهة بُركان ينتظر ، أو لا تعلم أنَّ الحركة العُماليَّة

الإحتجاجيَّة خلصت إلى زيادة في الأجور وأنَّ المرأة اليوم تحررت من كلِّ قيدٍ ، وهناك الكثير من

الطُموح قد تحقق ، مثلكَ ألم تتمكن لكَّ من الكثير من الأمكنة وبِمُختلف أماكن هذه الأرضِ .

نظر إليها وقال : إنَّ كلامك شاعريّ ، إنني أعلم أنها الحياة ونحنُ نعيش بها مرَّةٍ واحدةٍ ،ثمَّ قولي كلَّ

أفكاركِ راضية ومقبولة ولا أشكُّ في مصداقياتها ، ألا تريدين المشاركة في الإنتخابات القادمة أو ليست

هناك إنتخابات في العاشر من ماي

المرأة : بلى وأن متحزبةٌ ، وتبسمت ، نعم أو ليست القِوى الديمُقراطيَّة في حاجتنا ونحن نحتاجها لنُكوِّن

أنفسنا ونُنَظِمَ صفوفنا ، إنَّه قدرٌ قاسٍ لكنَّ سالكَه عليه تحريم الرجوع .

وخلد بِعيونها لأنَّ بعيونها حبٌّ ودِفئ ، وتدافعٍ كبير للظلمة ، وعدت بِسرابٍ وتفاهةٍ و بإستمرارٍ وتفاهة و

ثباتٍ .

الرجل: ألا تخافي الوعود؟

السيّدة: ماذا هل تعني ..الوعود الكاذبة ؟

إنها ماءٍ بعد ضميءٍ ، لبعض الأغبياء هي مُنعرجًا ؟

الرجل: وهل أنت قوّيَّة إلى هذا الحد ؟ إني أخشى عليكِ من التيار وضِيقِ المسار وخديعة وخذلان لا حصرة له.

المرأة: إحساسك نافِعٌ ..لكن ليس دائمًا ،لا نستطيع قراءة المكتوب بقلوب الناس ، ولن نرسى على ميناء

أو لا تريد القول أنَّها معركة النفوس ، وقد تتراجع المشاعر بين نصف ساعة وأخرى ، فلماذا نُسجن في

الإحتياط في ملعب الحياة ، والحقُّ يَقول أننا نعيش في بِركةٍ واحدةٍ وسنتركها لِمن بعدنا .

نزفت نظراته في الخلاء ونفث في البعيد أمَّا هي فقد واصلت الحديث ولا تنتهي من بركة من تترحل إلى

مصبٍ اَخر ، إشتملت كلَّ غامضٍ ، ووقفت على اللازم وَ عَداه ، وحققت تفاعلاً مع كيانها المُتحرر

واقعها وكما تراه .

المرأة: أحبُّ أن أكون إمرأة ، وأحبُّ أن أصنع إمرأة تتجدد مع كلَّ زمانٍ ، أوليس في كلِّ إنسان ، إنسانٍ

يسير في إقتدار ، حتى ولو ضعف مع تفاعل ظروف الحياة.

طبعًا أنا لم أشك ولن أشكَّ في هذه القدرة ، وقدرة الإنسان تنعكس على أفعاله ، وكم حقَّق من مقاصد

وهي قوَّة لنا .

المرأة: وردتْ لكنني أعمل وأفعل بالفعل على تحقيق كياني ، لأنَّ الريادة بالعمل لا بالوراثة .

الرجل: ماذا؟ أنا لا أعارض ، ولن أفعل ، فلا تخافي..

كان الزمن قصير والسيارة سيارة ، أمَّا البلاد هي على مساحة قليلة ،إذ كفت دورة واحدة حتى وضعنا أبصارنا على الأحوال ، وألممنا بالحال.

هذا اليوم ورغم الثلج هو نبضٌ دافء ، ولو سافرنا على الأقدام لكان أفضل من الزجاج .

توقفت العجلات على مساحة خاليَّة واسعة بوسط المدينة ،وما شدَّ إليه النظر ، مكانٌ مطلوبٌ وبِمبلغٍ

خيالي ، وأكثر الميلغ الكلام لكن في كِتمانٍ ، إنَّه شريان المدينة ، وإن إستغلَّ صحيحًا ستكون له صفةٌ

لم تكن لِغيره.

سألها فأجابت ، لا أريده لي ، ولكنني أردت أن أخبرك عنه:

هذا ما ترى كان كنيسة في العهد الإستعماري وبعد الإستقلال هُدِمَ ، ثمَّ وبعد خمسين سنة من الإسقلال هو كما ترى خلاء .

الرجل: إنتصاره إذا نال خُطَّة معمارية تمنحه جماله ومكانه.

ساروا خطوات على اليمين وتوقفوا على طريقٍ طويل واصلت الشرق بالغرب .

السيّدة : لكنها أخذت الكثير من الأرواح ، هي مسالك غير اَمنة ، كما يلزم عليها مُرشد لِمُسترشد.

وعادوا متدرجين كمن يريد السير لوحده ، وعيونها تتدرج الهُتاف ووجدان ملأ كلام ، ورفعت حدود

الضيق ، وتدفقت الفيض من عوالم مجهولة .

وأين تريد الرحيل بنا الآن؟ قالت ..كما ترى كلَّ شيء تغيَّر .

الرجل: يرفعُ حاجبيه أي نعم لقد تغيَّر كلَّ شيء منذُ حضوري المرَّة الأخيرة .

ترفع السيدة صوتها بنغمٍ لطيف:

تْذَكَرْ يَا شَبَابِ مَا فَعَلَتْ فَرَنْسَا فِيْنَا

نَكْرِتنا وبَعْدَتْنا عن أرَاضِينا

واليوم بعدما فَصَلْ الحَق عَن

البَاطل هَاهي الشمس تنير ليالينا

لكننا اليوم ومع شهر مارس هذا نعيش الخمسين حريَّة لا سلطة لسقيع بل بالعكس هناك تقدم وتشجيع ، و

تبخر ما كان من ضغطٍ على المسالك ، فهذا عامٌ فقط وأصبحنا نقطع المسافة بين الحَدَين في ساعة زمنٍ

وماذا لو ربَطوا قمم الجبال بسلسلة جسورٍ تسهل لنا ما بَعُدَ أو ليس هذا طُموحٌ ناجح ؟

الرجل: أتصدي لقد غرقت في الرؤية التي قدمتيها ، لكن ما تتكلمي عنه ليس سلسلة سبانخ مُعلقة أو شفاه

وديانٍ ينقصها مدٌ ، بل هي أماكن لفكَّ الغبن عنها.

وإختفت فترة وتنضخ صدرها نصيبًا من الهواء المُحْترق هي أفكارٌ ممزوجة بزجرٍ تتربص بدواخلنا

ونحاول دفعها بدواخلنا وتواصل: قل لي ماذا لو عرجنا نحوى بعض الأماكن المُمَجَدَةُ لدينا إنها القبور و

المقابر أين ندفن موتانا ؟ قل لي هل يوجد في أوروبا مثل ما لدينا من أماكن مباركة ؟

السيّد: بالطبع فهم يُمجدون أبطالهم ويصنعون لهم تماثيل تحفظ لهم البقاء، وهناك أماكن للصلاة طبعًا و

الفرق لن نتحدث فيه....

وكم من الثواب يَجْنيه المُصَلي ، لأنَّ التَوترات تُوَلِدُ المِحن وتُثقل على النفس وَرَهْبة تَتضَاعف ،والأنسان

في مثل هذا يُحَاول النُهوض بعد عَثر ويُقلب وجه الحياة إلى لذة ومُتعةٍ .

وتَبسَمت في وجْهِه طبعًا أُشَاطرك الأفرَاح و الأقرَاح لكنه الجَوّ والحَال لاَ يَتوقف عَلى حالٍ نَحلم بالجَمال

ويقيننا كبير بجميل الليل والنهار ، وهُدوء الوَاحة في الصَحْراء ، وحَلاوة عَرَاجين التَمر وهِي مُعَلقة فَوق

الرؤُوس، والأعناق ترنوا إليها ، لكنها مُسْتحِيل أن تُحَافظ على الثِقل أو تَسْتَغني عن تِيَار المَاء السَاقي لها

لا نَستطيع تكبيل سواعدنا عن تَضْميد الصَدر في حَالة موجة البَرد وهو يغزوا ويرتقي بإستمرار ، وهل

يُمْكننا تَوقِيفِ قَوافل الإستشهاد إذا مَا تفتحت سُيُول النِيْرَان عَلى الوطَن الغالي.

إنَّ أرضَ الجَزائر أرضا طيبة ، والحياة فيها هي رحلة من نقطة إلى أخرى مع شعورٍ متمكن مرسومٌ

على القلب ، نحمله عزيمة وإصرارٍ، هو رحلة من الأعماق إلى السطح ،ودنيا تعطي لا تعصي وتتودد

كثيرًا إلينا إذا ما أحست بضياعنا ، إنَّه الإعتراف بالمسؤولية نحوه، وإن رحل الشهداء عن المُخيّلة فهي

ورودٌ في التربة مُعلمةٌ ،إنَّ هذه الأرض هي قيمةٌ تغزوا أفكارنا ، وأصواتٌ كأصوات الفراشات ، نتسمَّع

وشوشاتها ، وفيه نُقَدِّرُ إلى أين يُمكننا الوصول .

وردَّ بعدما أحسَّ بشهيَّة الحديث، وسلاسل الأفكار تلحُّ الإطلاَّع :

ألا توافقي إذا قلت هي أفكارٌ تتربص بنا ، وأشياء قد يكون مراَه للجميع ؟ وتتفتح بنا على إرادة جديدة ، أولم تنظري إلى مخلفاتِ الرشق بالحصى؟

لن يبقى شيء على حاله إذا أهملَ..

السيّدة: وهل تريد أن نفترش حصيرة ونستعرض مُتفرقاتنا؟ ونُوسع الدائرة ونتباعد المسافات لا لشيء بل

لِنتفرج ، بل لكلِّ شيء جدَّةٌ تجرُّ لِفَرَجٍ لنكون بنفسِ ما بأنفسنا ، نحمل ملمحًا ونحوي ضدَّهُ ، لكننا نريد

السلامة ، فصوت الوطن بالقلب ، كما علاقة الزهر بزين الروائح و إعتناق أريج الثمر في غُصنِ الشجر

ودفء شُعاع ربيعي بعد بردٍ وسقيعٍ ، كُلنا ثائرٌ وعلنًا نقاوم لنُحررَّ المكبوت ، كما قدر فتاةٍ نالت شهادة و

تزوجت وأنجبت البنت بنتًا ودار بها نفسُ القدر ..

كانت المرأة تتكلم وكلُّ بالٍ حاضرٍ،عادتها مُشاركة يدها لِحديث لسانها ، كثيرة الإشارة بأصابعها ورفعتْ

يُمناها لِتشدَّ بجذع الشجرة ، وظهر خاتم براقٌ بيمناها وقالت:

أتدرك أرتاح عندما أضع الخواتم في اليمنى وأتحسَسُها وهي على اليسرى ؟

الرجل: وهل هذا غريب ؟ مُبْتَسِمًا أنت غريبة وقد حققتي سرًا بعيدًا في ذلك..

إنقلبت إليه ونظرته بِعمقٍ ولا يزال النهار في أوَّله شمسٌ تتحسن في الظهور، لكن سحاباتٍ بيضاءٌ تمنعها

وأبدعت في إرسال بريقٍ لمَّاعٍ من وراء ذلك على كَوْمَات الثلج هنا وهناك..

السيَّدة: أنت تُؤمن بالتعدديَّة في البِلاد حتى ولو كانت بِدون تَغيير ، والكُلُّ يَعمل لِصَالحهِ؟

الرجل: لا تنسي أنَّ الإختلاف تصويبٌ للرأي ، نعرف به أخطائنا ونترشد.

ردت: لكن من يعمل ويرعى راحة من معه ، من يترأس ليريح المرؤوس ؟ قد جدَّ ت المنفعة وطفحت

على السلوك ، ألست معي أنَّها معاهدة مع الإقطاعيين ؟ من لا يرى إلاَّ النَار لِلْتِبن وَتَوليه الأمْر كُله..

السيّد ودونما طلبٍ للكلمة: الكلُّ يطمعُ في التشاور وأغلبنا يحبُّ اللَّمة ، لكنها حواجزٌ تفرض علينا نفسها

وتستحقُّ مُوَافقتنا وإنْ عكسَ الواقع ما نريد؟؟

قالت: أنت مُغْرَمٌ بالمَاَسي ؟؟ إنها أصولٌ الكن رائدٌ فيما يقول فيها ، وإني أرى أنَّ فعل هذه الأحزاب هي

إنْهاءٌ للحُريَّة لا تكْملةً لها ، نريد من يُخْرجُنا من الحُفرة ويَقُودنا إلى السَحابْ لا يَنظُرنا مِن ضَيَاعٍ ، أو

يَقْرَأ عَلينا أشعارًا وقِصَصًا من الخَيال..و يُداوم بِنا في رُوحِ التَخْلِيد للعَدم..

الرجل: أتبحثين عن المطر في فصل الصَيف، أم عن التين وَسَطَ الوَرَقْ الأخضر ، إنَّ ما نعيشه هذه

الأيام يمنح نُكْهَة العِكْري فِي الطَعَام ، نِضال الإنْسانَ بَعِيد عَنِ الأَ نْظَار، والإنسان والإنسان ، لأنَّه هو

الحضارة ، باحثٌ عن تجميع وتنظيمِ اللَبِنَة .

السيِّدة: لا أريد كلامًا يُدَفء ولا يتجاوز لحظات الإستماع ، ألا تسمع ما يَحْدُث ، الإنسَان هنا لا يهتم إلاَّ

بِتحيُّنِ الفرصة ، هنا مرَّ أحدهم بهم فلم يرمي السلام ..وكانت السيِّد تعرفه ، نظر يَمينًا وشمَالاً وأكْمَلَ

أنظُرْ حتى السلام مُقْتَبَسٌ من الوجوهِ ، مواكب الأجْسادِ لاَ تَرْمِي نَظرة ، ومعَ هذا يُريد منك مَنحه صوتك

وتَمُدَّهُ بالثِقَة ، أو ليس مُنَجَمًا وصاحب شهادة قوِّيَة في النداء.

هنا تبسَمَ وقال: وإن إمتزج المَرَضُ بالمَريض فماذا يلزمْ؟

لكن إنظمَمتِ لأحدهم ولم تأخذي جانبًا وهذا الجميل لَدَيكِ ،لا تُوَاصِلي الظُلمة إلى عيونك ، الأسود للنَظَر

والأبيض للحِمَاية ، وإذا إختلطا لا من يُنير لكِ ، الأصبع يستقيم عندما عندما يريد طلب الكلمة ، ويتطلعُ

وِصَالهُ بالضي ، الحماسة تُهَيّجُ التيار .

المرأة: لا ، لا أميل بفكري إلى أحدٍ ، بل أتطلَع إلى الرنامج ، إنضمامي يعني النهوض من التخذير و

ما تبنَّيتُه له مُشترك إنساني بالعاقل المُتَمَكِن ، وإندماجٌ وذوبان في حركة ، نتجاوز بها المِحن ونستمِرْ

وتُغيّر بنا درجة الحرارة ، ونحسُّ معها بالدفء ، إنها نضال..

وواصلت: سأقود بَدَلَكْ، وركبت وركبوا، وواصلت الإعتدال في الجُلوسِ، حاولت الإعتراف على التغلغل

والإخترق لكن ما توضحَّ لها كان جفَاءً

المرأة: ياويح عيوني أبحث عن المفتاح وهو أمام عيوني ، وتجاوزها الإثنانِ بلحظة صمتٍ .

الرجل: هل الطريق من هنا مفتوحٌ؟

وتحركت العجلات في هدوءٍ من جديدٍ ، في طريقٍ حجب الثلجُ معالمها وتركت المركبات الأثر ، كانت

لا فتات الإشهار تغطي الطريق

السيّدة: أترى اللافتات ، ألا توافقني ، إنها خُطوت أكيدة ، وعلامة تُحرّكُ الحواس ، وتفتح الحجب وترفع

الطَمَس.

السيّد: ماذا لو تغيَّرت هذه اللافتات وأقيم لكلِّ حزبٍ مهرجانٌ يُوضَعُ بهِ مُريدهُ مايُريده ، وتنظيم أيامٍ

دراسيَّة بالمدارسْ ، وهكذا نلتحق بطبيعة منهج كلَّ جماعة ، ونتزوَّد بنضال من نبحث عنهم .

المرأة: أتدري مع هذه الأيام أحسُّ بإرتفاع درجة الأرض ، وكأنَّ الجاذبيَّة تغيَّرت وأصبحت لُغزًا تلفتت

وَ وَضعت يُمنَها على المِقْوَدْ تَشُدُّه بِشِدَّة ، تُريد الهروبَ والغوصَ أكثر ، تتجاوز الإنحباس في الحديث

لكنْ التفاعل يقضي الرجوع أو التوقف ، ولا يزال صلْبُ الحديث شهادة قوّية بها.

السيّد: إنني أسمعُ منكِ قولاً رشيدًا ، وأحسُّ بِروحٍ بها بُرودة وحرارةٌ ، لكنني لم أسمع عن ما سيحلُّ بكِ

بَعْدَ إفلاسِ شركَتِكِ فَهل ستبدئِ البَذْرَ؟

....

زحفَتِ الشمسُ كثيرًا إلى مُنتصَفِ السَمَاءِ، وتَسَبَبَتْ في ذوبانِ غالبيَّة الثلوج المُتَكَتِلَة ، و الكَوْمَة المُعَرْقِلة

وخرجَ الصغارُ يتَرمون بحلقات الثلج الباقيَّة ، هذا يَصيح وذاك يغرق فيما بقي ، وتِلكَ تُطِلُّ من الشرفة

تتوعدُ أولادها بالعقاب إذ لمْ يعودوا إلى البيت ..

السيّد: لماذا لم تُكوّنِ أسرةٍ ؟ قالها بِسُرعةٍ ..

المرأة: طبعًا لا يوجد نصيبْ ، أو لم يَحِنْ اللقاء بَعْدْ وعلى كلٍ فلا كثرة مالٍ ولا أولادٍ تَغويني .

نظرَ إليها ورفعَ حاجِبَه الأيسر في حيلةٍ ، وتفتحت شِفاهِه بِبَسْمَةٍ :

أنت جميلة ومقبولة ، ولكنني لم أقتنع بما قُلْتِ ، لم يعُدْ لَديكِ الزمنُ اليسير للإحتيار ، خذي بِنصيبِكِ من

الحياة ، قول لي ألا تَتَمَنَيْ اللَعِبَ بالثَلْجِ ؟أُنظري ..كانَ الصبي غارقً وأنتاجِهِ من الصِبْيَةِ لا هِيًا مُنْدَمِجًا

صَعُبَ الإقترابُ منه ، سال فُضُوله وتَحيَّن فُرْصَةُ غروبهما في الحديث و إبتعد بعيدًا، وقابلاه عند

السيارة يَنْظران الوُسْع والجمال ، علَّه لن يتكرَّر إلاَّ بعدَ عَشرات السنين ، وهذا ما عودتنا عليه المفاجأة

أو هي الفاتحة ولن تَشحَّ علينا الطبيعة بهذا الجمال، نريد منه الزيارة حتى ولو في فصل الصيف ،وتنقلت

العيون لا تمانع أيُّ مَنظرٍ حتى إفتُتِنَت بالبياض.

وقفت مُتَحفظة النظرات ، واقفة تتابع سيولاً في مجاري أرضيَّة ، الماء يسري في خطوطٍ مرسومة ،

تأخذ طريقها دون تحفُظٍ .

السيّدة: بحثت في كلِّ شيء فلم أجد ما يُعوّض قطرات الماء هذه ، الماء ضروري نحصل به على البقاء

الماء نِعمةٌ تُسْقِطُ متاعب العطش والجفاف .

أسمِعْت بما مرَّ عَلينا من أيامٍ ؟

ردَّ: أنَّه لا يعلمُ شيئًا مِمَا تعني..

السيّدة : كنتَ أنت بِفرنسا ، أيامٌ قبلَ أن تأتي كنا في حالة هَلَعْ وخوفٍ من مَجْهولٍ ، أتعلم أننا إحتجنا

للماء وإشتدتْ حاجتنا إليه ، أكثر من ثلاثين يومٍ ، حتى القلوب تفرقت وتوزعت تبحثُ في البعيد، تمزقت

الشرايين وثارت للحاصل ، طبعًا التحفظ مُخيفٌ والتطلُّعِ للخلفيات أخَفْ .

السيّد: هل هذا صحيحٌ

المرأة: وردت بإشارةٍ من رأسها ، أصبحت أوراق الزمن تتساقط بسرعة ، إلى ذات جُمُعَةٍ إتفقنا فيهاعلى

رفعِ القِابِ لله جلَّ وعلا ، لِيتسَترَ علينا ما حلَّ بنا أوقدْ ، الأرض إشتكت ، وحدقت عيون السماء في ما

حلَّ بالسُفلى ،وصلينا صلاة الإستسقاء ،وسُبحانُه تفجرت الأرض ثلجًا وبردًا ، وأصبحنا ذاك الفجرِ نلعبُ

بِكُرات الثلجِ معجزة الثلاثين سنةٍ .

اللون الدخيل صورة جديدة برزت به كرمُ الخالق وَوُسْعِهِ لم نبحث عن ماغيَّر الأحوال ، لأننا أصحاب

نيَّة ،لنا صوَّرٌ عن ضوائقٍ توسعت ، ولازمةُ وباءٍ شُفينا منها ، أمَّا وإن إفتقدنا المطر فلم يدُم ذلك أيامٌ

حتى سالت السُحب و تعصرَ السَواد بياضٌ صافٍ .

عندما كتبت أسطر روايتي كُنت أبحث عن المؤثر، والغوص في العمق ، لأجد أحرف الرحلة وأنظم

الجُمَل ، وتعاقب الخيال على الأفكار وصار الحلم حقيقة وكتبْ.

السيّد: ماذا كتبت ؟

كما ترى ما يحدثُ هذه الأيام إننا نعيش اليوم والغد للمُفاجأة، أتُصدق إذا قلت لك إذا كان البياض لصدقِ

الأحاسيس ، فإننا لم نعرف من قُبحِ الأيام ، ونُقصِ العلاقات وصراعٌ نفسي كما الأن .

السيَّد: هذا لأنَّك مُتَمَرِدٌ..

المرأة: لا بل أحب العيش في حالة تعتمد العقل ، لا تعمل على زوال لفكر .

السيَّد: تمهلي ، تمهلي باخرة لنقل البضائع ، أو بضاعة لمن يشتريها ، نحن نتبادل لا تُطفئِ ضوء القمر،

كُلنا نحسُّ برغبة السير على ضوئه ، ولا من يَكبح إحساس القلب ، نريد ملأ الكون حوادث زماننا نحكي

له حكاية ، ونتزحلق مثل الندى على ورق الزهر ، والفكر يعيد الدرب كيف كان ، إنَّه مسلك الهوى لا

تحرقي القلب بِحِقدٍ ومَرَضٍ يُنتج القصور وما لا نرضى.

ولا يزالوا سائرون حتى توقفوا في حاجزٍ تفتيشي ، نظر الشرطي للصبي فإبتسم.

الشرطي للسيُّد: هل هو إبنك؟

السيّد: نعم.

الشرطي: والسيدة: أمه؟

تبسمت الأنسة وردت لا ..إبنه فقط..

أفسح لهم الشرطي بالمرور ..وساروا في صمتٍ

الرجل: لماذا لم تقولي أنَّه إبنك؟

نظرت إليه وصمتت وكأنها تقول كلَّ الحياة هي ملكي إلاَّ أنت .لا تقول لي أن أقول ما بذهني لأنَّه صعبٌ

أشعر بالحياة مملوءة وأنا معه ، وعند فراقه أحسُّ أنني إمرأة بصيغة الكلام فقط ، المرأة جمالٌ وجمالها

إذا ما حضرت الطيور للأزهار ، الأطفال هم هذا الجمال والألوان المختلفة .

وتنبهت إلى الفراغ الذي هي فيه ، وخلت عيونها تنظر في البعيد ، وَمَنظرٍ خَلَّف السؤال والحيرة ، أمَّا

الروح فكانت في مهدٍ من يداعب العيون لتنام.

....

ودخلوا شارعً ضيّقًا ووقتًا قصيرًا وقفوا على درجٍ ، وترجلوا الدرج ولم يبلغوا النصف حتى تدلى وجه

كلٍ منهم أمامه .

الصبي: هل البيت بعيد؟

المرأة: عندما تدخل أمَّ الدرور هذه تتفجر بك براكين الأوهام هنا الحذر يُعَلِم وُجوده وعليك أن تهتمَّ أين

تسير..توقفوا عند بابٍ عتيقٍ ظهر خشبة بعدما تنحت وتجلخَتْ عنه الصباغ ، إستطلع السيّد يمينًا وشمالاً

المكان مهجورٌ .

الرجل: هنا تُفْرَض المسؤوليَّة النفسيَّة على النفس.الخوف يداعب القلب وكلَّ درجة تعلوها تقول ما أغلاك

حذاري من الهلاك..

فَتحت الباب إمرأة عريضة ، ضخمة دائرة التكوين تصرخ الحفاظ على النفس أفضل بكثير من العيش

بنقصٍ وفي سقْمٍ وعلَّة .

تتابعوا إلى بهوٍ مُشمسٍ ظهرت فيه شمسٍ إنتشرت من سطحٍ عارٍ، جاءت الشمس وغاب الخريف وحلَّت الفرحة بعد تعاسةٍ .

جلسوا جميعهم .

سيّدة البيت: لقد إنتظرتك طويلاً قُلْتِ أنَّك تأتين يومًا وأطلت الأيام؟ .

ردت السيّدة بأعذارٍ ، أكثرت الحماقات وكلماتٍ مهدورةٍ لا شجى ولا روح المسؤوليَّة ، أكثرت معها الهرج.

قدَّمتِ سيّدة البيت ما بمطبخها من قهوة وواجب الضيافة ، وعرجت إلى نافخٍ صغيرٍ به جمرًا حملته

بقماشتينِ ووضعته بوسط البيت، لكنَّ السيّدة قرَّبته كثيرًا .

سيّدة البيت : أتحبي الجمر ؟

السيّدة: واليوم باردٌ.

سيّدة البيت: لقد حضَّرْتُ لكِ الماء البارد هل أجلبه ؟

وإنصرفت السيّدة تأتي بالماء.

الرجل: ماذا أسمع هل تُدجلين؟

لكنَّ المعنى تغيَّر عندما دخلت سيّدة البيت وهي تَحْمِلُ كوبًا بهِ مَاءً وهي تُتَمْتِمُ ووسعَ الجميع لمكانها

المُكتظ وقدَّمته للسيّدة ، شربته عن اَخره ، وخلا إلى أحشاءها يجلُوا دربهُ بِرَقَبَتِها الهائمة والعيون تتابع

حركة الماء وهو يُغادرْ.

سيّدة البيت: بالشفاء؟ سَتُشْفَينَ أنا مُتأكدةٌ..

لم تكن السيّدة لتَروي الحاصل معها وهي تتشعره بدواخلها ، وإنتزعت لنفسها الهدوء من الطبيعة و

ونصيبٌ من مثار الزهر وهو يبرز براعم بفصل الربيع ، هذا هو ملاذها بعد إفلاسها كثيرًا ، من يعرف

سيّدة البيت قليلون ، وهاهي غابت ثمَّ عادت ، جلست ولم تتطلَّع عيون الاَخرين .

سيّدة البيت: الحياة خطر هذه الأيام ،واللسان كفيلٌ بغزل المحاكي ، أميل إلى السواديَّة بدون شكٍ أو بعيدة

عن الشك ، لأنني وحيدة، قصدت الأنسة بكثير من النظر ، وعيونٍ تبعث الوحشة :

لكم إنتظرت زيارتك هذه ؟

الرجل: وهل تعيشين وحدك؟

منحته سيّدة البيت كلَّ أحوالها وأنَّ زوجها لا يعود إلاَّ مع المساء ، وإبنتها الوحيدة بالإقامة الداخليَّة بالعاصمة.

السيّد: لكن حياتك راحة لا يوجد بها بذلٌ لأوزارٍ أو مضَضٍ وضَرَرٍ .

هنا تحدثت الأنسة عن معرفتها بالسيّدة وأنَّها الصديقة المُقربة لوالدتها ،وتواصل في سلسلة كلامٍ جاري

بين وصفٍ وأملٍ وطموحٍ ،وتمني يخترق البعيد ويُجالس الساهي القريب،وانتشرت الضحكات والهمسات

كما ضي الشمس ساعة تبسمه بالشروق ، وتشعرت السيّدة بالوقت يمُرُّو يتبسط وضعت يدها في جيب سروالها تتحسس حركة المحمول وهو يتذبذب ، شاهدت الرقم ، إبتعدت بسرعة عن الجماعة وردت ، و

قد تغيَّرت لحمة خدودها وتغيَّر لونها ، أما دائرة العيون فقد ضاقت حتى لم يعد يرى منها إلاَّ الرموش

تتهزز ، شدَّت بِيُسراها على شعرها الأسود ، ألصقت يُمناها المحمول على أذنها ، ما بقي منه إلاَّ اَلة

صغيرة ظاهرة ، وإنتهت المهاتفة ، وسارت إلى مكانها تتفتح المكان بيدها تُبْعِد رِكاب هذا وذاك

المرأة: هذه أختي تسألني عن موعد عودتي للبيت .

قام السيّد وتبعه الصبي :سننصرف..

السيّدة: هذا هو الوقت..

ساروا جميعهم ، تلفت السيّد إلى أيقونة لرأس غزالة بارزة العيون سوداء وبيضاء .

سيّدة البيت: هل أعجبتك؟

الرجل: نعم هي جميلة ، لقد رأيت مثلها في متحف إسطمبول ، وكانت أكبر منها بكثير .

سيّدة البيت: هي هديَّة أحد العائدين من بلجيكا وهي للتزيين فقط.

كان البيت كلُّه متحف وطغت الظُلمة في أركانٍ كثيرة ، أفرشة وستائر وقماشٍ

سيّدة البيت: هنا يرتاح قلبي ، منزلي هذا بُني في أربعينيات القرن العشرين .

المرأة: ووجد من تهتمُّ له مُتبسمةٍ..البيت هو شهادة عن الماضي ، وعن حقبة مضلمة ولا يزال مناضلاً مع الزمان .

ووصلوا إلى الباب الخارجي بخطوات تتسحب ، عميقة ، من إنحبس في الجلوس ثمَّ إنطلق .

إنقلبت المرأة طويلاً إلى الجدران وأطالت بنظراتها تقدموا بالتحيَّة لسيّدة البيت ونزلوا متتابعون .

العزيمة روحٌ تقوي ، وتسري بالفعل ، ومامن مُريد لشيء إلاَّحققه بإرادته .

تبعتهم تشدُّ الباب بِيُمنَاها خوفًا من إنغلاقه اللاإرادي ، وإختفت كما إختفوا ..

ركبوا جميعهم وتدفأ الحال حنانًا ومسرَّةٍ بما كان ، تذبذبت رموشها ، وتفتحت قيد لا تظهر وتبسمت

كانت مفاجأةٍ أليس صحيح؟ لكنني كنت أشتاق للمكان ، ووعدتها بالزيارة حتى الحال سمح بالحال، و

وطلَّت الشمس من بعيدٍ وأرسلت فيض نورها وهاجًا فما ترك مكانًا إلاَّ طالته ، وخرج الطير هنا وهناك

يشدوا طربًا بدفءٍ يريده ، كان شهر فبراير في مؤخرته والربيع إختلط بالشتاء فشذى البلبل ومال أخذت

العجلات في الدوران وكلما تسارعت ترامى الثلج قطرات إلى الخلف حتى عرجوا على بِطاحٍ وصورة

لجبلٍ يعلو الأرض وتلبس رغوة بياضٍ حتى تخاله صورة ثوب لُبس على عجَلٍ .

وقفت المرأة متأملة ودونما تفكير قالت:

كنت أريدك أن تحتفظ بصورة لبياض ثلجنا هذا ؟ فهل هو مثيل أوروبا؟

السيّد: أريد الإحتفاظ بصورة ، ولا أحتاج لتزوير ثلجكم أنقى منه هناك..

صَراحة يُعجبني مَرْأَى الثلج ، هو بِدْعة الخَالق في خَلقه ، فمن غُيومٍ إلى مَطرٍ إلى بَردٍ إلى ثَلجٍ كُلُها حَياة

نَحْياها ، ونَتغيَّرُ معها إذا تَغيَّرت ، ونُرِيدها لأننا نَسْعَدُ بِهَا وتُسْعِدنا ، ونلبَس تَنَكُرها ، نُريد البَرد ونُريد

الحرارة ، نريدهما مزيجًا نتنعَّمه ، نريده كما اللباس يحلو لنا لباسه فنلبسه وترتاح معه روحنا فننتعش

بهِ ولَو لِوَقتٍ قصِيرٍ.

ويُواصل: أتدري كلَّ مكانٍ من الأمكنة التي زرناها هو ذكرى ، وما نقف عليه الآن ، الصوَّر هي كلُّ ما

نملكُه لأنفسنا من ذكريات ، والأرض هي مختلف الذكريات التي يحملها الإنسان من ماضيه ، هذا الثلج

الذي نقِفُ عليه الأن في الأيام القادمة سيصبح نصيبًا من حكاوينا .

السيّدة: ربما لن يسقط ،و ربما سيُداوم؟

الرجل: ما أحتفظ به هو بيت السيّدة التي زرناها إنَّها تملك متحفًا .

المرأة: كنت أعلم إذا لم ننتهي ستأخذنا في الأحاديث وننسى أنفسنا ، أجلس إليها لأنها مُتعة ، كثيرة الحزم

وَصَابرة ، لها الكثير في إعادة الهدوء لي عندما حلَّ بي ماحلَّ من إفلاسٍ.

سَاروا جميعهم بالثلج ، الساعة مرَّت بنصف ساعة بعد الثانيَّة عشرٍ ، وتدفء النهار ، وبعث على

الإنطلاق وتخلى عن البُرودة .

البَيَاض هو حَكَاوي الأَطْفال ، وأَحْدث التَغْيِير في الأيام وتَنَالِيها ، تَرجَلوا على الثَلج فإنزلقت و زلَّةْ

إحْدَى قدماها فنزلت إلى الأرض ، وتساعدت على إلْمَامِ ضَيَاعِها وتبعثرها وإمْتَصَتْ ضُعْفِ قِوَاهَا

قَامَتِ وإعْتَدَلت ، ولم يقتَرِبَا مِنْها إلاَّ بَعْدمَا قَامَت على قَدَمَاها لأنَّهما كانا بَعِيدَان عَنها .

والآن سَنعود ، هَذا يَكفي وَرَكبوا جَميعهم تَاركين الطَريق مَاضٍ خَلفهم.

كان الطريقُ مُتَحَرِرًا وهذه السنين لم يعرف صنيع إرهابٍ أو قطَّاع طرقٍ ،وغادر ما كان به من شكوكٍ

غامق حفَ لسيران الدرب وحصد ما كان به من شوكٍ وماكان أصبح ذكرى ،الهدوء سيّدٌ على الغموض

ظهر رأس الجبل هناك بعيدًا ،وعلَّ ماكان به توقف نزيفه وظهرت سيولٌ تَحفر بطن الجبل وتسري من

القمَّة إلى السفح والأثر تارك المكان على مهَلٍ .

لم تتوقف العيون عن التأمل ، سألها : هل هنا الماضي ما زال يتكرر، ردَّت ما معنى كلامك ؟أفصح قال

لا أريد التذكر ،لا كثرة كلامٍ وكثرة مديحٍ ،أقصد ما عشناه من سواد في الثمانينات والتسعينيات ، ردَّت:

كنت على يقين بما تريده ، ما أريد قوله إننا لن نغلق الأبواب بل الفِطرة لا تتغيَّر ، والروح الجامدة قد

تتحرَّك يومًا جائزٌ لها كلَّ ما تريد قال: هل تعني أننا أحرارٍ؟

قالت: أكيد أو نصفه أكيد ونصفه لا أعلم أمَّ الأكيد فهو ما قد تتسبب فيه الشِجارات الصبيانيَّة أمَّا عن

الإنسان العادي فيعتدُّ كثيرًا لكبريائه، فهو يحتاج لدراسات نفسيَّة مُعمَّقة لتصفحِ أغواره ، إننا أناس عقلاء

نتحوَّل وما يريده التحوُّل، ونُدرك ما يَتحيَّنه القانط من الحياة ، ونمنح للعمر الزمن الجديد مبشرٍ لا جاحدٍ

السيّد: وملامحه أثرٌ بمَا في الباطن، هناك شبابٌ لم يعي من القضيَّة غير قصصٍ وحكاوي الأباء والأجداد

ولم يُفرق بين الحرب والإبادة ، ولا بين سنين سوداءٍ ولا ألفيَّة تحبُّ من يعيشها بسلامٍ ، طردت البؤس و

نجحت في تغيير جوِّ الحياة ، أما أرض الموت فهناك أراضي قدرت على ضبط الفهمِ.

وتبسمت : أكنت تتابع سير الأيام عندنا ؟ أكنت تهتمُّ لنا ؟ هكذا إذن ، ولا تُحِبُ الظهور بل تتظاهر، كُلما

سمعتك كلما إستمتعت وريَّحت،حديثك ناضجٌ ورؤيتك عميقة، إننا نشترك في كلمة هي الحياة والعصفور

التائه عاد إلى وكره وأصبح حرٌ فعله ، وملأنا الصحراء شجرًا يحطُّ على أحلاها وأعلاها ، القلب إمتلأ

إننا أبناء جذورٍ من هذه الأرض إن إختلفت الفكرة فالمرمى ضربة قدمٍ ،ولم يعد هناك حارسٍ لأنَّ الفهم

ضُبِطَ ، وأصبح السهم يتقصَّد وأصبح الرسام يرسم على اللوح مايريد ، ما عشناه هو سحر ساحرٍ عاش

بيننا حتى فرق بيننا ، ودحضنا حتى قذفنا بالواد ، وخرجنا من الهوَّة وفقدنا الكثير وتَبَرثنا أكثر.

مسحت الأنسة على وجهها ، وتلفتت إلى السيّد وسألته عن ما يقول في أرضٍ يزورها بعد أعوام قساوة

وبعد الإبتعاد عن مثلث ما لبيكي الخطير فكان خافت العيون ،أفسح لبصره كمن يريد إلتهام جميل صوَّر

الطريق ، عيون تصرخ جاذبيَّة ، جاريَّة سلسلة الذكريات .

السيّد: هل ننام على ما تركه لنا أجدادنا ؟ لا يمكن أن نتوقف بل علينا التجديف .

توقف الكلام من يقف على القمَّة ويراقب السفح ، ويحوي ويحيط بالمستحيل ، إنَّه كأس الهوى لا لون ولا طعم ، محجوزٌ بضلعة الرأس كما الورم.

وظهر السيّد كما البارع والمُدَاهم في الحديث تحدَّب وتقدَّم برأسه ، يريد حيازة التجمُّع الذي أمامه مددَّ

رجليه وسكن.

المرأة: إنَّها الخيبة تطال وتغطي من المصب إلى المدب ، هذا تجمُّع مطالبين بحقٍ ، الأجساد مجتمعة و

هذا الشرطي كما رئيس الجوق يقف عالٍ ومتشامخ .

إننا تلاميذٌ من مذاهب كثيرة ، نعيش مراحل كثيرة وفي زمنٍ قصيرٍ ونعيش مرارة كما مرارة القهوة لكنَّ

لنا مرجعٌ ، يظنُّ المرء نفسه يتدبر لكنه يحتفظ بالفعل بدون غربلة بل نحتفظ بالحصى علنًا ، قبضت

بيمناها على صدرها مرتبكةً .

الولد: ماذا أراك غير مرتاحة لنعد إلى البيت ؟

لا تهتم قالتها وسكنت ، عَلَتْ السيارة مسلكًا أحسَّ ثلاثتهم به إلتفتت إلى السيّد وقالت: عندي عضلة

مرضوضة صعبٌ التحكم فيها .

السيّد: هل رأيت طبيبًا؟

ردت بنعم وإتكأت على مرفقها الأيسر...

السيّد: كلامك نبيذ وتحذير وإني أريد السماع منك الكثير؟

المرأة: أنت من صاحب خبرةٍ أما أنا فإبنت هذه الأيام والدنيا عندي مدهونة بمرهم يُزال مفعوله مع

الزمن ، بعدما مسَّج الجلد ومزَّجه .

ودَحَض مَزَاعِمه بإبتسامة رَسَمت الخُدود مِن جَديد ، أمَّا الصَبي فَقَد رَسَى عَلى مَقعدٍ وَزار أكثر مِن مَكان

في الحِلم تَعاطاه ، مَالت إليه مَزهوَّة ، وزَارته عُيونها تُمسح عَنه ثِقلٍ أصابه ، وإمْتدت إليه يُمناها تَحرّك

جَماده ، أحَسَّ بأصَابعها بَاردة كما رشَّة مَاء أعادته إلى عَالم الأحْياء ، وَصَفى عندمَا مزَّقت سَماعه

بكَلمَات تُطَمْئنه بالوصُولِ .

....

.....

لَمْ تَقُل لِي لِمَاذا جِئْت مِن أورُوبا وتَركت الجَامعة وأعْمَالك ؟

السيّد: ألم تدرك إلى الأن؟ جِئت لأنَّ المُنَاقصَة رَسَت عَلى شَركتي.

نظرت إليه وتوزعت الدهشة على وجهها ؟ أتريد القول أنَّ أسهم الشركة إشتريتها أنت ؟وهل شركة

السيارات هي مِلْكَك ؟

السيّد: بالطبع وأنا من سيصدِّر أولى السيارات الجزائريَّة ، وإن شئت أعطيتها إسمك..

ردَّت في دهشةٍ : لا أصدِّق كلَّ هذه المسافة وهذا الصمت ليومين ..أنّك حقًا لحافظٌ للأسرار .

ثمَّ قل لي ألا زلت أستاذًا بالجامعة الفرنسيَّة ؟ .

وإنطلق لسانه يحكي عن حياته الشخصيَّة ، وكيف أصبح مديرًا للطاقة بوزارة الطاقة والمناجم الفرنسيَّة

وأنَّ رأس ماله تعدى الملايير ، أسس شركة بعدما كان عضوًا في مجموعة شركات منتجة لمختلف السلع

وناشطة في التجارة ، وقد تتبعنا ما حلَّ بالإشتراكيَّة ، وماذا أحدثت بالشركات المُتتبعة لهذا النظام ، و

زحفِ المال وإدارة الأعمال الكبرى على الكونيَّة .

عندما إنخفضت أسهم شركتك عرفت ماذا سيحدث ، وكانت الفرصة للقاء .

السيِّدة: لقد عَلمت ما قامت به الدولة ، نوديَ على المتعاملين الإقتصاديين الجزائريين الموجودين

بالخارج ، وهذا لأجل بقاء ملحنا في طعامنا .

وسألها عن فعلها وعن عملها الحالي وقد علم بإفلاس شركة صنع السيارات الجماعية التي ترأس مجلس

إدارتها .

ردت: ألا يمكنني العمل معك؟

السيّد: سأجيبك فيما بعد.وواصل: أتعلمي أنَّ المال هو المُسيطر ، والواقعيَّة الرأسماليَّة إستطاعت الصمود

بعكس الأنظمة الأخرى ، المال في سباقٍ ، والحياة تتحرك ، لاحظي الذهب وقيمة الغرام الواحد أكثر من

ستة ألاف دينار جزائري أمَّا وفي أوروبا فهو ضعفه مرتين ، والحال هذا يؤدي إلى الإنقلاب الإجتماعي

أمَّا الحروب والتغيُّرات الطارئة في العالم الأوروبي وما يعيشه الأورو الأوروبي من إنعاشٍ فهذا ما

ساهم بدوره فيما نحياه من هزات متتاليَّة.

السيِّدة: الشركة كانت ذات رأس مالٍ ضعيفٍ كما أنَّ الأسهم بها كانت ضعيفة ، والإبتكار أحدث الطفرة

والنوعيَّة ، والمشروع عرف هذا الإنهزام بعد هذه الرجَّة العنيفة من التغيرات..

ردَّ عليها أنَّه يحتاج إختصاصها ، وهو هنا ليُدعمها إذ يحتاجها لأنَّ أفكارها تَهمه .

السيِّد: أمَّا المعرض العام المُقبل فسيحوز الإهتمام ، لأنَّ النظر سيتوقف عند السيارة والتي ستحمل إسمها

أو إشارة تعنيها ، ستبقى بمكانها ، لأنها صعبة التعويض ، إذ لم يأتي ليزيحها ، وإن إكتسح الماسح

الإلكتروني التكنولوجيا فهي مُعاصرة ولن يمسحها أيُّ رقمٍ .

وواصل: إننا نحتاج إلى إبتكارٍ وتطوُّرٍ دائمين ، فالحال لا يتوقف ولا يتمهل بل الآنيَّة هي المسيطرة

وهي المتغيِّرة ونحن معها.

في أيامٍ قلائل فُتحت الشركة ، وإشترى أسهمها العائد من الغربة ، وفتح لها أبواب كادت تُشمَّع إلى الأبد

لأنَّه مَشْهُودٌ لَهَا بِالإِنْتَاج وَالطَاقَة والقُدرة عَلَى العَطاء أكْثر فأكْثر.